مدرسة أبى تمام

بين قدامى المولدين والمتأخرين

عبد المتعال الصعيدى

الأستاذ بكلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية

الناشر

مكتبة القاهرة

بالصنادقية بالأزهر

لصاحبها على يوسف سليمان

مدرسة أبي تمام

بين قدامى المولدين والمتأخرين

تأليف

عبد المتعال الصعيدي

الأستاذ بكلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية

يطلب من الناشر

مكتبة القاهرة

لصاحبها: علي يوسف سليمان

شارع الصنادقية - بميدان الأزهر بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ما قدر كان ، وما لم يقدر لم يكن ، والصلاة والسلام على رسوله محمد المصطفى من العرب لجميع الأمم .

وبعد : فهذا عصر من عصور الأدب العربى ، أردت أن أضع فيه كتابا بهذا الإسم (مدرسة أبى تمام بين قدامى المولدين والمتأخرين) على نحو ما اخترت من الأسماء للعصور الأدبية السابقة على هذا العصر إذ كان كل اسم منها يشعر بميزة عصره وطابعه ، ويشير إلى الأساس الذى ستقوم عليه دراسته ، ليكون نهجا جديدا فى تقسيم عصور الأدب العربى يقوم على أساس طابع كل عصر وميزته ، لا على ما جرى عليه مؤرخو الأدب العربى من مراعاة الأحداث التاريخية أو السياسية فى تقسيم عصوره فاستقامت لى بهذا دراسة أربعة عصور بهذه الأسماء :

(١) النهضة الأدبية قبل الإسلام .

(٢) الإصلاح الإسلامى فى أدب صدر الإسلام .

(٣) الرجعية الأدبية فى العصر المروانى .

(٤) الثورة الأدبية لقدامى المولدين .

ثم شرعت فى دراسة عصر هذا الكتاب (مدرسة أبى تمام بين قدامى المولدين والمتأخرين) وأنا لا أزال أشتغل بالتدريس فى

الجامع الأحمدى ، وكان من بين ما أدرسه فيه تاريخ الأدب العربى ، ولم أكد أبدأ فيه حتى نقلت إلى كلية اللغة العربية من كليات الجامع الأزهر ، فتحقق بهذا أكبر أمنية لى ، وهى الاتصال بمجالات العلم الواسعة فى القاهرة ، لأكون أقدر على تأدية رسالتى الإصلاحية .

فكان لهذا أثره فى تغيير مجرى أفكارى ، وفى الانصراف عن إتمام هذه السلسلة فى تاريخ الأدب العربى إلى عصرنا الحديث ، كما كنت أقدره لها حين شرعت فيها ، لأنى وجدت غيرها فى رسالتى الإصلاحية أهم منها فيها ، وأولى بالتقديم عليها ، فمضيت فى هـــذا ما مضيت ، ووضعت فيه من الكتب ما وضعت ، ونشرت فى الجرائد والمجلات من البحوث الدينية والعلمية والأدبية ما نشرت .

ثم عدت أخيرا إلى النظر فيما وضعته فى تاريخ الأدب العربى من السلسلة السابقة ، فهذبت فيه بعض التهذيب ، ورأيت أن أقتصر على ما كتبته فى العصر الذى وصلت إليه ، وأن أجعله كتيبا صغيرا فى ذيل الكتب التى وضعتها قبله ، لأرشد به إلى الأساس الذى يجب أن تقوم عليه دراسة عصره ، ولعل الله تعالى يهىء لهذه السلسلة من يتمها بعدى ، ويجرى فيها على نهجى إلى أن يصل إلى العصر الحديث الذى كنت أريد أن أختمها به .

مدرسة أبي تمام

خصائص مدرسة أبي تمام :

عمل قدماء المولدين من الفرس على تقريب الشعر من لغة التخاطب ، وكان هذا بعد أن مضى على لغة التخاطب أكثر من قرن بعد ظهور الإسلام ، إذ اختلط العرب بعده بغيرهم من الشعوب ، وتأثرت لغة التخاطب بذلك أكبر تأثير ، فرأوا أن يدخل فى الشعر من السهولة ما يدنيه من لغة التخاطب ، ورأوا أنه لا يصح أن يبقى فى ألفاظه الغريبة على الناس بعد تغير ظروفهم وأحوالهم ، وهذا ما سميته بالثورة الأدبية لقدامى المولدين .

وكان لهذه الثورة مناهضون يتعصبون لقديم الشعر ، ويرون أنه يجب أن يبقى فى لغته الخاصة به ، وإن بعد بها عن لغة التخاطب وإن صار غير مفهوم إلا لعلماء الأدب الذين يعرفون دقائق اللغة القديمة للعرب ، ولكنهم لم يقووا على مناهضة القائمين بهذه الثورة من أمثال أبي العتاهية وبشار بن برد ، إلى أن ظهر أبو تمام فى بيئة عربية خالصة من بلاد الشام ، فتأثر بنشأته فيها ، وعمل على أن يكون للشعر لغته الخاصة به ، لتبقى له منزلته الرفيعة فى الأدب ، ولا يتيسر إلا لمن يعلو بنفسه إلى هذه المنزلة الرفيعة ، حتى لا يكون فى متناول كل من هب ودب ، وحتى يستأثر به خاصة الناس دون عامتهم ،

وكان هذا مما دعاه إلى اختيار ما اختاره فى كتابه (ديوان الحماسة) من أشعار فحول الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، ليحفظها ويتمرن عليها من يريد قرض الشعر ، ويجرى على طريقتها فى إيثار اللفظ الفخم ، والمعنى الذى يعلو على فهم جمهور الناس .

ثم إنه لم يكفه هذا فى إبعاد الشعر عن لغة التخاطب ، بل أضاف إليه أمرا جديدا يجعله أدخل فى باب الصناعة الشعرية ، من الإكثار فيه من المحسنات البديعية ، وإخضاعه لها إلى الحد الذى تطغى فيه على أسلوب الشعر ، فتجعل منه أسلوبا بديعيا يؤثر فيه اللفظ على المعنى وتبعده عن أن يكون له فى الناس رسالة إصلاحية .

وكان لهذه المدرسة شعراء شايعوا فيها أبا تمام ، وناصروه عليها فى حياته وبعد وفاته ، ومن أشهر من شايعه فيها تلميذه البحترى ، وابن المعتز ، وأبو الطيب المتنبى ، وأبو العلاء المعرى ، وغيرهم عمل على الرجوع بالشعر إلى لغته الخاصة به وإن عمل أبو العلاء على أن يكون لشعره رسالة إصلاحية أيضا ، ولكنه جنى عليها بوضعها فى ذلك الإطار الذى بعد بها عن العامة ، فلم يكن لها أثرها بينهم ، على ما كان فيها من قوة ونبل .

وكان أكثر الذين شايعوا مدرسة أبى تمام من عناصر عربية صميمة ، مما يدل على أنه كان لعنصريتهم أثرها فى مشايعة هـــذه المدرسة ، وكذلك يلاحظ أن هذه المدرسة ـ ولاسيما زعماءها الثلاثة أبا تمام والبحترى والمتنبى ـ هى التى زودت علوم البلاغة بأكثر شواهدها الشعرية ، فلا تجد لغير الثلاثة من الشعراء الذين سبقوهم

مثل ما لهم من هذه الشواهد ، لأنهم حينما قصدوا إلى الرجوع بالشعر إلى أسلوبه القديم استعانوا فى ذلك بلوازمه من فنون البلاغة حتى تزاحمت فى أشعارهم بما لم تتزاحم به أشعار من قبلهم ، ولأمر ما عنى علماء الأدب بهؤلاء الشعراء الثلاثة ، وشغلوا بدراسة أشعارهم وبالموازنة بينهم ووضعوا فى ذلك من الكتب ما لم يضعوه فى غيرهم لأنهم وجدوا فى أشعارهم بغيتهم من فنون البلاغة ، ووجدوا فيها ما يساعدهم على تدوينها وتوسيعها ، وعلى أن يصلوا فيها إلى الحد الذى تكاملت فيه وانقسمت إلى علومها الثلاثة : المعانى والبيان والبديع .

وبهذا كله ساغ لى أن أجعل لهذه المدرسة عصرا من عصور تاريخ الأدب العربى ، يتميز عن غيره من العصور بهذه الميزة التى امتازت بها ، والتى كان الفضل فيها لزعيمها الأول ـ أبى تمام ـ لا لحدث من الأحداث التاريخية أو السياسية .

ولا بد لى مع هذا أن أشير إلى أن القاضى الجرجانى قد سبق إلى شىء قريب من هذا فى أمر أبى تمام ، ليكون لى سندا فيما أراه من ذلك ، وله فيه كلام نفس أنقله هنا على طوله لنفاسته ، وقد جاء فى كتابه المشهور : (الوساطة بين المتنبى وخصومه) :

قال فيما كان من أمر الشعراء قبل أبى تمام ، وهم الذين ، بسميتهم قدامى المولدين :

كانت العرب ومن تبعها من السلف تجرى على عادتها فى تفخيم اللفظ وجمال المنطق ، لم تألف غيره ، ولم تأنس سواه ، وكان الشعر أحد منطقها ، ومن حقه أن يختص بفضل تهذيب ، وينفرد بزيادة

عناية ، فاذا اجتمعت تلك العادة والطبيعة ، وانضاف إليها التعمل والصنعة ، خرج كما تراه فخما جزلا ، قويا متينا ، وقد كان القوم يختلفون فى ذلك وتتباين فيه أحوالهم ، فيرق شعر أحدهم ، ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره ، وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق ، فإن سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ، وأنت تجد ذلك ظاهرا فى أهل عصرك وأبناء زمانك ، وترى الجافى الجلف منهم كز اللفظ ، معقد الكلام ، وعر الخطاب ، حتى إنك ربما وجدت ألفاظه فى صوته ونغمته ، وفى جرسه ولهجته ، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك ، ولأجله قال النبي ﷺ « من بدا جفا » ولذلك تجد شعر عدى وهو جاهلى(١) أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما إسلاميان ، لملازمة عدى الحاضرة وإيطانه الريف ، وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب ، وترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم ، والغزل المتهالك ، فان اتفقت لك الدماثة والصبابة ، وانضاف الطبع إلى الغزل ، فقد جمعت لك الرقة من أطرافها .

إلى أن قال :

فلما ضرب الإسلام بجرانه(٢) واتسعت ممالك العرب ، وكثرت الحواضر ونزعت البوادى إلى القرى ، وفشا التأدب والتظرف ،

---

(١) يعني عدي بن زيد العبادي من شعراء الحيرة

(٢) الجران فى الأصل مقدم عنق البعير . يعنى بهذا استقرار الاسلام . كما يقال ألقى البعير جرانه أي برك .

اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله ، وعمدوا إلى كل شيء ذي اسماء كثيرة فاختاروا أحسنها سمعا ، وألطفها من القلب موقعا ، وإلى ما للعرب فيه لغات فاقتصروا على أسلسها وأشرفها ، وتجوزوا الحد فى طلب التسهيل حتى تسمحوا ببعض اللحن ، وحتى خالطتهم الركاكة والعجمة ، وأعانهم على ذلك لين الحضارة ، وسهولة طباع الأخلاف فانتقلت العادة وتغير الرسم ، وانتسخت هذه السنة ، واحتذوا بشعرهم هذا المثال ، وترفقوا ما أمكن وكسوا معانيهم ألطف ما سنح من الألفاظ فصارت إذا قيست بذلك الكلام الأول يتبين فيها اللين فيظن ضعفا ، فاذا أفردت عاد ذلك اللين صفاء ورونقا ، وصار ما تخيلته ضعفا : رشاقة ولطفا .

ثم قال فى أمر أبى تمام وهو بيت القصيد :

فإن رام أحدهم الإغراب والاقتداء بمن مضى من القدماء لم يتمكن من بعض ما رامه إلا بأشد تكلف ، وأتم تصنع ، ومع التكلف المقت وللنفس عن التصنع نفرة ، وفى مفارقة الطبع قلة الحلاوة ، وذهاب الرونق وإخلاق الديباجة ، وربما كان ذلك سببا لطمس المحاسن ، كالذى نجده كثيرا فى شعر أبى تمام ، فإنه حاول من بين المحدثين (١) الاقتداء بالأوائل فى كثير من ألفاظه ، فحصل منه على توعير فى اللفظ وتبجح فى غير موضع من شعره فقال :

فكأنما هى فى السماع جنادل وكأنما هى فى القلوب كواكب(٢)

---

(١) م المولدون .

(٢) الجنادل : الصخور . ويعني بأنها كواكب بعدها من الأفهام .

فتعسف ما أمكن ، وتغلغل فى التصعب كيف قدر ، ثم لم يرض بذلك حتى أضاف إليه طلب البديع ؛ فتحمله من كل وجه ، وتوصل إليه بكل سبب ، ولم يرض بهاتين الخانتين حتى اجتلب المعانى الغامضة وقصد الأغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقيل ، وأرصد لها الأفكار بكل سبيل ، فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر ، وكد الخاطر .

إلى أن قال :

ولست أقول هذا غضا من أبى تمام ؛ ولا تهجينا لشعره ، ولا عصبية عليه لغيره ؛ فكيف وأنا أدين بتفضيله وتقديمه ؟ وأنتحل موالاته وتعظيمه ؛ وأراه قبلة أصحاب المعانى ، وقدوة أهل البديع لكن ما سمعتنى فى أول هذه الرسالة أنه يحظر إلا اتباع الحق ، والحكم به لى أو على ، وما عدوت فى هذا الفصل قضية أبى تمام ، ولا خرجت عن شرطه ؛ إذ يقول فى يوسف السراج شاعر مصر فى وقته :

فلو نبش المقابر عن زهير ... لعول بالبكاء وبالنحيب(١)
متى كانت معانيه عيالا ... على تفسير بقراط الطبيب(٢)
وكيف ولم يزل للشعر ماء ... يرف عليه ريحان القلوب

---

(١) يعنى زهير بن أبى سلمى ، والنحيب : رفع الصوت بالبكاء ، وعول : رفع صوته بالبكاء أيضا . فهو تأكيد

(٢) عيالا على تفسير بقراط : أي يعول فى تفسيرها . وبقراط فيلسوف يونانى وطبيب .

نخبرنى هل تعرف شعراً أحوج إلى تفسير بقراط وتأويل أرسطو ليس من قوله :

جهمية الأوصاف إلا أنهم قد لقبوها جوهر الأشياء (١)

وقوله :

يوم أفاض جوى أغاض تعـــزيا

خاض الهوى بحرى حجاه المزبد (٢)

ثم ساق كثيرا من أمثال ذلك فى شعره ، وتمنى لو حذف منه حتى يقطع ألسن العيب فيه .

فالقاضى الجرجانى يذكر فى هذا أن أبا تمام انفرد وحده من بين المحدثين بهذه الطريقة التى جعلتها مدرسة له ، وأنه عمد إليها تقليدا للاوائل من الشعراء ، وأنه خرج بهذا عمن سبقه من المحدثين ؛ ولكنه لا يجعل من هذا مدرسة شايعه فيها من شايعه من الشعراء فى حياته وبعد مماته ، حتى غلبت على الشعر بعده ؛ وأخذت بهذا عصرا من عصور تاريخ الأدب العربى ، وإنما لم يتنبه إلى هذا لأن دراسة تاريخ الأدب دراسة حديثة فى عصرنا ، ولها فضل تنبيهى إلى هذا مما لم يتنبه له القاضى الجرجانى .

---

(١) جهمية الأوصاف يعنى الخمر . وجهم من المعتزلة القائلين بنفى الصفات . يقول إنها رقت حتى لا ترى فتوصف وخرجت عن أن تكون عرضا أو جوهرا . فهي جديرة بأن تكون أصل الموجودات كلها .

(٢) هو من قصيدة له فى مدح المأمون وكان فى غزو الروم . أفاض جوي : أسال بكثرة . والجوي شدة الوجد من عشق ونحوه . أغاض تعزيا أذهب سلوا والحجا العقل . ويعنى أن الهوي غلب ديه على العقل .

على أنى مع هذا أعيب على أبى تمام طريقته فى ذلك من أولها إلى آخرها ، وأجعل من أخذه بتقليد الأوائل من الشعراء حركة رجعية فى تاريخ الأدب العربى ، والقاضى الجرجانى يخالفنى فى كل هذا ويدين بتفضيل أبى تمام وتقديمه ، وينتحل موالاته وتعظيمه ، ويجعله قبلة أصحاب المعانى ، وقدوة أهل البديع ، ولا يعيب عليه إلا بعض أشعار سلك فيها سبيل الغموض والتعقيد ، وتمنى لو حذفت من شعره حتى يقطع ألسنة العيب عنه ؛ وإن كان كلامه قبل هذا يفيد أن ذلك طريقة عامة فى شعره ، مما يجعل رأيه مضطربا فيه .

فليس لمدرسة أبى تمام بعد انحرافها عن طريق التجديد إلى طريق التقليد إلا محافظتها على قوة الشعر وفخامته ، وإلا أنها أنجبت شعراء يكادون يضاهون أوائل الشعراء فى قوة الشعر وفخامة اللفظ ، من أمثال البحترى وابن المعتز والمتنبى وأبى العلاء المعرى ، وغيرهم من شعراء هذه المدرسة ، وأكثر شعراء كتاب اليتيمة للثعالبى من شعرائها ، وهم أحسن من يمثلها لمن يريد دراسة تاريخها الأدبى ، واستيفاء مباحثها على نمط دراستى لغيرها من العصور الأدبية ، ومعرفة أثرها فيها من أولها إلى آخرها ، ويكفينى هنا أنى بينت معالم الطريق لدراستها ، وأنى ابتكرت الفكرة ، ومهدت لمن يمضى فيها إلى نهايتها .

ولا يفوتنى بعد هذا أن أنبه إلى أن هذه المدرسة مكثت تؤدى رسالتها التقليدية ، وتحفظ للشعر قوته وفخامة لفظه ، إلى أن استعجمت الدولة الإسلامية فى المشرق ، بعد سقوط الدولة العباسية

فى أواسط القرن السابع الهجرى ، إذ قامت فيه دول من التتر والترك لا يهمها أمر اللغة العربية ، كما كان شأنها فى عهد الدولة العباسية ، وقد أمكن الدولة العثمانية التركية بعد هذا أن تستولى على أكثر البلاد الإسلامية فى المشرق والمغرب ، وأن توحد بهذا الدولة الإسلامية إلا قليلا من أطرافها النائية ، ولكنها جعلت لغتها التركية لغة الدولة بدل اللغة العربية ، وفرضت تعليمها فى جميع بلادها حتى البلاد العربية ، فانحط شأن اللغة العربية بين الناطقين بها ، وانحط أدبها من شعر ونثر ، حتى طغت عليه الأساليب العامية ، وصار إلى غاية من الضعف والركاكة .

ولم يزل هذا شأنها إلى أن ظهرت النهضة الحديثة فى عصرنا ، فأخذ المخلصون للغة العربية ينهضون بها وبآدابها ، ويعملون على أن يصلوا بشعرها ونثرها إلى ما كان له من القوة والفخامة ، على أن يكون هذه فى الحدود المعقولة ، ولا يصل إلى درجة تبعده عن لغة التخاطب ، كما كان شأن قدامى المولدين قبل ظهور أبى تمام ومدرسته وقد وصلوا فى هذا إلى غاية رفعت من شأن اللغة العربية ، وجعلتها تساير النهضة الحديثة فى العلوم والآداب ، فجزاهم الله عنها أحسن ثواب .

أولى شعراء هذه المدرسة بالزعامة :

ولا بد لى هنا من بيان الزعيم الأول لهذه المدرسة ، لأنه قد يتوهم من نسبتها إلى أبى تمام أنه زعيمها الأول ، وهو رأى جمهور من العلماء يتعصب له على غيره من الشعراء ، ولكنه لا يصلح عندى

لزعامة هـذه المدرسة ، كما لم يصلح قبـله امرؤ القيس وأضرابه لزعامة عصورهم عنـدى فى دراستى لهـا ؛ لأن للشعر رسالة يجب مراعاتها مع حسن ألفاظه وجودة معانيه ، فيجب مراعاة الأمرين معا فيمن يستحق الزعامة على شعراء عصره ، وهما لم يتوفرا لشاعر فى هذه المدرسة مثل ماتوفرا لأبى العلاء المعرى ، فهو عندى أولى شعرائها بالزعامة .

أبو تمـــام

نسبه ومولده :

هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائى ، من طيء صليبة كما يقول صاحب كتاب الأغانى ، وقيـل إنه كان منها بالولاء ، لأن أباه كان نصرانيا يسمى تدوس العطار ، وأصل تدوس تيودوس ، فغيرها من ادعى أنه من طيء صليبة إلى أوس ، ولفق له نسبا فى طيء ليس فيه إلا عشرة آباء ، مع أنه لا يصح أن يكون بينهما أقل من ستة عشر أبا وعنـدى أن من يلفق عشرة آباء يمكنه أن يلفق الستة الباقية إذا كانت لازمة فى ذلك على أن مثل عدد الآباء لا يمكن القطع بشيء فيه ، لأن العمر يختلف طولا وقصراً ، وقد يكون عمر عشرة آباء مثل عمر ستة عشر أبا ، وكذلك نزعة أبى تمام إلى تقليد الشعراء الأوائل ، وإلى إعادة الشعر إلى قوته وفخامة لفظه ، ترجح أنه كان عربيا صليبة يتعصب لقديم العرب ، ولو سلم أن أباه كان نصرانيا لم يقدح بشيء فى أنه كان عربيا صليبة ، لأن النصرانية كانت قديمة فى طيء وغيرها من قبائل العرب ، وكذلك لو سلم أن اسم أبيه كان تدوس أو تيودوس ، لأن من نصارى العرب من كان يؤثر هذه الأسماء الرومية بتأثير ديانته النصرانية .

وكان مولد أبى تمـام سنة ١٩٠ هـ ، ٨٠٥ م بقرية من قرى

منبج يقال له جاسم ، وهى على مقربة من دمشق ، فكان مولده فى بيئة عربية ترجح أيضا أنه كان عربيا لاروميا ، على أن الخلاف فى مثل هذا لايهم بشيء فى دراسة أبى تمام من الناحية الأدبية ، لأن البيئة العربية التى ولد فيها صهرت كل من كان بها ، حتى صار بعضهم لا يفترق عن بعض ، وظنى أن هذه الظاهرة بين عربى صليبة وعربى بالولاء كانت قد اختفت فى عصر أبى تمام أو كادت كما تختفى الآن فى عصرنا ، لأنها لم يكن لها شأن إلا فى عهد دولة بنى أمية ، إذ كان العرب فيها ظاهرين على غيرهم ، فكان للتمييز بين النسب العربى الخالص وغيره شأنه بينهم ، أما بعد هذه الدولة فإن الأمر صار إلى العكس ، إذ ظهر غير العرب عليهم ، ولم يكن هناك معنى لذلك التعالى بالنسب بينهم ، ولا للقول بأن هذا عربى صليبة وذاك عربى بالولاء ، ولا للخلاف من جهته فى نسب أبى تمام ، إذ يكفى أنه كان عربيا ، ولا يعنينا أن كانت عربيته صليبة أو بالولاء ، كما لا يعنينا مثل هذا الآن .

نشأته وسيرته :

نشأ أبو تمام بين أبوين فقيرين ، فلم يرض بعيشة الفقر بينهما ، بل نزح إلى مصر فى طلب الرزق كما قيل وهو غلام صغير ، ولأهل الشام من قديم حبهم فى الهجرة طلباً للرزق ، لأن طبيعة بلادهم تضيق عنهم ، ولكن هجرة أبى تمام فى هذه السن تدل على قوة نفسه وعلى بعد همته فلما وصل إلى مصر أقام بمسجدها خمس سنين ، ويقال إنه كان يسقى الماء بالجرة فيه ، وسواء صح هذا أو لم يصح فإن

إيثاره للاقامة بالمسجد وهو مكان الدراسة العلمية والأدبية فى ذلك الوقت يدل على ميله إليها ، إن لم يدل على اشتغاله بها فيه ، مع الاستعانة بسقى الماء بالجرة فيه على الحصول على لقمة العيش ، ولولا هذا لاشتغل بعمل خارج المسجد يدر عليه من الرزق أكثر مما يدر عليه ذلك العمل ، وإنى أرجح لهذا أن مقصده الأول من تلك الهجرة كان طلب العلم لا طلب الرزق على أنه لم يلبث أن أدرك أنه استبدل فقراً بفقر ، وأنه جمع إلى هذا متاعب الاغتراب ، فعاد إلى الشام وأقام بدمشق ، وأخذ يطلب فيها العلم والأدب ، مما يدل على أن هذا هو الذى كان يهمه حين هاجر إلى مصر ، فتعلم العربية وآدابها ، وحفظ ما لا يحصى من الشعر القديم للشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، ويقال إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقطعات ، ولا شك أن هذا كان له أثره فيما سبق من إيثار تقليد الشعر القديم ، وتكوينه لمدرسته التى عملت على إعادة الشعر إلى قوته وفخامة لفظه ، بعد أن وصل فى إيثار سهولة اللفظ إلى ما وصل إليه فى عهد قدامى المولدين .

ثم أخذ نفسه يقرض الشعر على طريقته التقليدية التى آثرها حتى نبغ فيها ، وصار فيها إماما يقتدى به ، ويحذو الشعراء حذوه ، ثم عمد إلى التكسب به كما كان أولئك الشعراء الذين قلدهم يتكسبون به ، فاشتهر أمره فى الشعر ، وسار له صيت به ، وساعده على هذا أنه كان فصيحا حلو الكلام ، وإن كان فيه تمتمة يسيرة لم يكن يحسن معها أن ينشد شعره ، فكان يتولاه عنه غلام له فصيح يحسن إنشاد الشعر .

وكان إلى هذا حاضر الذهن ، سريع الجواب ، حتى إنه لم يعرف من أهل زمانه مثله فى حدة الخاطر ، ولطافة الحسن ، ومما يحكي عنه فى ذلك أنه مدح أحمد بن المعتصم ، فقال فى قصيدة يصف فيه إقدامه وسماحته وحلمه وذكاءه :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم احنف فى ذكاء إياس(١)

وكان الفيلسوف أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندى حاضراً ، فقال له : الأمير فوق من وصفت(٢) فأطرق أبو تمام قليلا ثم قال :

لاتنكروا ضربى له من دونه مثلا شروداً فى الندى والباس(٣)
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس (٤)

فأخذوا القصيدة من يده فلم يجدوا فيها هذين البيتين ، فعجبوا من سرعته وفطنته ، ولما خرج أخبر أبو يوسف ، وكان فيلسوف العرب : أن هذا الفتى يموت شابا ، لأن حدته وذكاءه يجعلان نفسه تأكل جسمه كما يأكل السيف المهند غمده ، فصحت فراسته فيه ،

---

(١) يعني عمرو بن معد يكرب الزبيدي . وحاتما الطائى . والأحنف بن قيس التميمى . وإياس بن معاوية القاضي المشهور

(٢) يعني أنه فوق عمرو ومن ذكر معه . هذا ملق منه . لأنه لم يكن مثلهم فى صفاتهم . ولولا الاعارة لم يكن له ذكر مثلهم . وقد مات وماتوا فنسي ذكره وبقي ذكرهم

(٣) شرود ذاهبا فى الناس . والباس مخفف البأس وهو الشجاعة

(٤) يعني قوله تعالى (مثل نوره كمشكاة) الآية ، والمشكاة كل مايوضع عليه النبراس أي المصباح

ومات فى حدود الأربعين سنة ، وكان هذا الفيلسوف يريد إحراجه بذلك أمام الأمير ، ولعله كان يرى أنه لا يؤخذ عليه شيء فيه ، وأنه كان يكفى لضرب المثل بهم أنهم سبقوا إلى ما اشتهروا به من ذلك ، وأن الناس والشعراء يضربون المثل بهم فيه ، ولكنه رأى أن الأمير ربما تأخذه العنجهية ويتأثر بذلك الملق من ذلك الفيلسوف فتخلص بذلك من إحراجه له .

ثم رأى أبو تمام بعد اشتهاره بالشعر فى الشام أن ينزح إلى بغداد قاعدة الدولة ، لينتشر فيها ذكره أكثر مما انتشر ، لانه يمكنه أن يتصل فيها بملوك الدولة وأمرائها ، فيرتفع ذكره بمدحه لهم ، وينال من صلاتهم ما لا يناله من غيرهم ، فمدح الواثق من الملوك ، ومدح أحمد بن المعتصم من الأمراء ، ومدح أحمد بن أبى داود ومحمد ابن عبد الملك الزيات من الوزراء ، وطار له صيت بمدحه لهم ، وارتفع شأنه بما ناله من صلاتهم وجوائزهم .

وكان يترك بغداد المرة بعد المرة ، ويقصد كبار الولاة بأطراف المملكة ، فذهب إلى أرمينية وخراسان والحجاز وغيرها من الأقطار ، ومدح خالد بن يزيد والى خراسان ، ومدح عبد الرحمن ابن طاهر والى الحجاز ، ومدح غيرهما من الولاة ، ونال كثيراً من صلاتهم وجوائزهم .

وكان لهذه الرحلات أثرها فى شعره وأدبه ، ويقال إن الثلج حال بينه فى همدان وبين المضى فى سفره ، فاضطر إلى البقاء فيها ، وعكف على خزانة للكتب بها ، وأخذ ينفق وقته فى تصنيف ما ظهر له من المختارات ، مثل كتاب الحماسة ، وكتاب فحول الشعراء ، وكتاب الإختيارات من شعر الشعراء .

ثم عاد إلى بغداد وقد ذاع صيته أكثر مما ذاع ، حتى صار أكبر شعراء عصره ، فرغب به أهل الدولة عن التكسب بالشعر ، وولاه الحسن بن وهب صاحب ديوان الرسائل بريد الموصل ، فأقام بها أقل من سنتين ، ثم مات بها فى حدود الأربعين من عمره ، سنة ٢٣١ هـ : ٨٤٥ م .

منزلته فى الشعر :

يعد علماء الأدب أبا تمام رأس الطبقة الثالثة من الشعراء المحدثين ، ويجب أن يقصر هـذا عندى على أضرابه من الشعراء المتكسبين ، ويبالغ بعض المتعصبين له فى منزلته فى الشعر ، حتى يذكر أنه ما كان أحد من الشعراء يقدر على أن يأخذ درهما بالشعر فى حياته ، فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخـذه ، وهذا يؤخذ عندى عليه ولا يحسب له ، لأن للشعر رسالة أسمى من التكسب به .

وكان استئثاره بذلك فى حياته سببا فى كثرة حساده من الشعراء وغيرهم ، وفى اختلاف أمرهم فى شعره ، وتبعهم فى هذا من أتى بعدهم ، فمنهم من يفرط فى تعصب له حتى يفضله على كل سالف وخالف ، ومنهم من يفرط فى تعصبه عليه ويأخذه بالردىء من شعره ويؤخره عن غيره ، ومنهم من يتوسط فى أمره كصاحب كتاب الأغانى ، وهو يرى أن السليم من شعره النادر شىء لا يتعلق به أحد ، وأن له مع هذا أشياء متوسطة ، وأشياء رديئة رذلة جداً .

وعنـدى أن أبا تمام كان يرى كما سبق أن له رسالة فى الشـعر العربى ، ليعيده إلى ما كان عليه من القوة وفخامة اللفظ عند الأوائل ،

وقد نجح فى أداء رسالته فى ذلك ، وأنشأ له فيها مدرسة جاراه فيها كثير من شعراء عصره ، وغلبت على من أتى بعده من الشعراء ، وهو فى هذا رأس مدرسته وزعيمها الأول بلا منازع ، وقد غفل عن هذا من نظر إلى شعره من غير هذه الناحية ، فأدى إلى وقوع الخلاف فيه على نحو ما سبق ، وقد سبقه مسلم بن الوليد إلى شىء من هذا ، ولكنه لم يسرف مثل إسرافه فيه ، بل كان يجرى كثيراً مع طبعه ، ولا يتكلف من ذلك ما تكلفه أبو تمام بعده .

وكان أبو تمام قد ظهر بعد أن كملت ترجمة علوم الأوائل وفلسفاتها ، ولاسيما فلسفة اليونان العالية الدقيقة ، فنظر فيها بما زاد من دقة فهمه ، وحدة خاطره ، فجعل يغوص فى شعره وراء المعانى الدقيقة ، والاستعارات والكنايات الخفية ، ولشدة تأثره بهذا فى شعره قيل إنه حكيم وليس بشاعر ، كأن الحكمة لاتجامع الشعر ، وكأن الشعر لايجامع الحكمة ، وهذا خلاف الحديث المشهور « إن من الشعر لحكمة » .

ولم يقتصر أبو تمام على محاكاة الأوائل فى معانيهم العالية وألفاظهم الفخمة ، بل كان يخترع من ذلك ما لم يعهد مثله عند الأوائل ، ومن هذا قوله :

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه
بكفيك ما ماريت أنه برد(١)

(١) البرد كساء مخطط وفى رواية ــ بكفيه ماغاليت

والقدماء لا يعرفون هذا الحلم الرقيق ، وإنما الحلم عندهم يزن الجبال ، كما قال بعض الشعراء :

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا ما نجهل

ولكن أبا تمام تأثر فى ذلك بحضارة عصره ورقة الحلم عند رجاله ، ولكل عصر فى ذلك حكمه(١)

وكذلك تأثر بعصره فيما كان يكثر منه فى شعره من ضرب الحكم والأمثال ، ومن الاستدلال على الأمور بالأدلة العقلية ، فمهد بهذا طريق الحكم والأمثال لمن حذا فيها حذوه ، كالمتنبي والمعرى وغيرهما من الشعراء الحكماء .

ولكن هذا التكلف الذى كان يعنى به فى لفظه ومعناه كثيراً ما كان يؤدى به إلى التعقيد وسوء التأليف فى شعره ، وإلى الخروج عن قواعد اللغة وتحميلها من هذا ما لا تطيقه ، ومن هذا قوله :

خان الصفاء أخ خان الزمان أخا

عنــــه فلم يتخون جسمه الكمد(٢)

فأثار بهذا وبما كان يخترعه من الإستعارات البعيدة علماء الأدب عليه ، لأنه خرج به على مألوف القدماء ، بل أوقع نفسه بهذا فى الخروج على مذهبه فى العودة بالشعر إلى تقليد الشعراء الأوائل ،

---

(١) وأخذ عليه أيضا أن البرد لا يوصف بالرقة . وإنما يوصف بالمتانة والصفاقة . وأكثر ما يكون ألوانا مختلفة .

(٢) جملة خان الزمان أخا عنه صفة لأخ . يعني أبعده عنه . ويتخون ينقص ، والكمد الحزن الشديد .

حتى إن ابن الأعرابى أنشد شعراً له من ذلك ثم قال : إن كان هذا شعر فما قالته العرب باطل ، لأنه وأمثاله من علماء الأدب لا يجيزون لأبى تمام وغيره من المحدثين أن يتصرفوا فى اللغة أو يخترعوا فيها ، وعندى أن هذا لا يصح منعه على إطلاقه ، وإنما يمنع منه ما يؤدى إلى مثل ذلك التعقيد فى شعر أبى تمام ، وما إلى هذا مما لا يستسيغه الذوق اللغوى .

وإذا كان أبو تمام قد وقع بذلك فى تلك المآخذ فإنه مع هذا أجاد القول فيما تناوله من الشعر فى المدح وغيره من الأغراض التى تناولها أمثاله من الشعراء المتكسبين ، وله فى الرثاء قصائد كان بعض أمراء عصره يتمنى أن يموت ليرثيه بمثلها ، وإذا كان قد وقع أحيانا فى تلك المآخذ فى بعض قصائده فى المدح ونحوه ، فإن هذا لا ينقص من جودتها البلاغية فى جملتها .

مختارات من شعره :

أشعار أبى تمام وقصائده مشهورة ، وله ديوان مطبوع يمكن الرجوع إليه لمن يريدها ، ولعلماء البلاغة ولوع فى الاستشهاد بها فى علومها ، لأنها عامرة بفنون البلاغة التى أولع بها فى شعره .

ونختار منها هنا قصيدة له فى رثاء محمد بن حميد الطائى ، وهى من أجود ما قيل فى الرثاء ، حتى إن أبا دلف أنشدها ثم قال : والله لوددت أنها فى ، فقال أبو تمام : بل أفدى الأمير بنفسى وأهلى وأكون أنا المقدم(١) ، فقال أبو دلف : إنه لم يمت من رثى بهذا

(١) يعنى أن يموت قبله.

الشعر ، وهى هذه القصيدة مع بعض الاختصار فيها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر
فليس لعين لم يفض ماؤها عذر(١)

توفيت الآمال بعــد محمد
وأصبح فى شغل عن السفر السفر(٢)

وما كان إلا مال من قل ماله
وذخرا لمن أمسى وليس له ذخر

وما كان يدرى مجتدى جود كفه
إذا ما استهلت أنه خلق العسر(٣)

ألا فى سبيل الله من عطلت له
فجاج سبيل الله وانثغر الثغر(٤)

فتى كلما فاضت عيون قبيلة
دما ضحكت عنه الأحاديث والذكر

فتى دهره شطران فيما ينوبه
ففى بأسه شطر وفى جوده شطر

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة
تقوم مقام النصر إن فاته النصر

(١) لم يفض بالفاء لم يسل ، ويصح أن يكون بالغين أي لم ينضب لنفاده من كثرة البكاء .

(٢) السفر بفتح فسكون المسافرون .

(٣) المجتدي السائل ، استهلت استعارة من استهل المطر انهل وانسكب.

(٤) انثغر الثغر انفتح للعدو وهو المكان الذي يخاف هجومه منه .

وما مات حتى مات مضرب سيفه

من الضرب واعتلت عليه القنا السمر(١)

وقد كان فوت الموت سهلا فرده

إليه الحفاظ المر والخلق الوعر(٢)

ونفس تعاف الموت حتى كأنما

هو الكفر يوم الروع أودونه الكفر(٣)

فأثبت فى مستنقع الموت رجله

وقال لها : من تحت إخمصك الحشر

غدا غدوة والحمد نسج ردائه

فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر(٤)

وهذا هو الرثاء الصادق لأمير مات مجاهدا فى سبيل الله تعالى ، ويزينه مع هذا فخامة لفظه ، وجودة معانيه ، وحسن تشبيهاته واستعاراته ، مما جعل أبا دلف يتمنى أن يموت قبل أبى تمام ليرثيه بمثله .

وصية أبى تمام للبحترى :

ولا بد فى آخر الكلام على أبى تمام من ذكر وصيته للبحترى ، لأن فيها ما يؤيد أنه لم يكن شاعرا فحسب ، وإنما كان شاعرا

---

(١) القنا الرماح واحده قناة.

(٢) الحفاظ الدفاع عن المحارم.

(٣) تعاف تكره ، يوم الروع يوم الحرب.

(٤) غدا غدوة : سار إلى القتال أول النهار.

صاحب مدرسة ، وله رسالة فى الشعر أخذ بها تلميذه الأول ، ليبلغها عنه إلى غيره من الشعراء ، وينهجوا على منوالها فى الشعر ، وها هى ذى وصيته على لسان البحترى :

قال البحترى :

كنت فى حداثتى أروم الشعر ، وكنت أرجع فيه إلى طبعى ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ، ووجوه اقتضابه(١) حتى قصدت أبا تمام ، وانقطعت إليه ، واتكلت فى تعريفه عليه ، فكان أول ما قال لى :

يا أبا عبادة(٢) تخير الأوقات وأنت قليل الهموم ، صفر من الغموم(٣) واعلم أن العادة جرت فى الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شىء أو حفظه فى وقت السحر ، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم .

وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق ، فإذا أخذت فى مدح سيد ذى أياد(٤) فأظهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وابن معالمه ، وشرف مقامه ، ونضد المعانى ، واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة ، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام .

---

(١) الاقتضاب الانتقال فى القصيدة من النسيب إلى المدح ونحو ذلك .

(٢) كنية البحتري .

(٣) صفر خال .

(٤) نعم .

وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل شعرك إلا وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه فإن الشهوة نعم المعين .

وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله .

وهذه الوصية تدل على أن رسالته فى الشعر كانت مقصورة على تجويد الألفاظ المعانى ، وعلى تقليد الماضين فى ذلك ، وهو لا يعنى بالماضين قدامى المولدين قبله ، وإنما يعنى بهم الشعراء الأوائل من الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، لأن رسالته فى الشعر كانت كما سبق إعادة الشعر إلى أسلوبهم ، ليقضى على ما أحدثه فيه قدامى المولدين ، وإن كان لم يلتزم بذلك فى شعره ، بل جاء بشعر لا هو إلى الشعراء الماضين ، ولا هو إلى قدامى المولدين ، وإنما يجمعه بشعر الماضين علو أسلوبه ، ومجانبته للسهولة ، وبعده عن لغة التخاطب فى عصر .

البحتري

نسبه ومولده :

هو الوليد بن عبيد البحتري ، ينتسب إلى بحتر ، وهى بطن من طيء ، وطيء قبيلة أبي تمام كما سبق ، ولكن البحتري لم يختلف في نسبته إليها كما اختلف في أبي تمام ، فهو عربي صليبة بالاتفاق .

وكان مولده بمنبج أو بقرية من قراها كما ولد أبو تمام أيضا ، وكان لهذا وذاك أثره في تأثره بمدرسته ، إلى ما يأتي من العوامل التي جعلته يتأثر بها أيضا ، وجعلته التلميذ الأول لهذه المدرسة .

نشأته وسيرته :

نشأ البحتري في بلده فقيرا كما نشأ أبو تمام ، ولكنه لم يكن له همة مثل همته تحفزه إلى طلب الغنى بالهجرة من قريته إلى مصر أو غيرها كما هاجر قبله ، بل قبع في قريته راضيا بفقره ، ثم أخذ يقول الشعر بسليقته ، ويلهج به في غدواته وروحاته ، حتى إنه كان يدخل المسجد من باب ويخرج من باب آخر وهو ينشد الشعر في طريقه ، وقد يقف على حلقات المسجد فينشده واقفا ، ثم يخرج من باب المسجد ويقف على باعة البصل والباذنجان ويمدحهم بشعره ولعله كان يستجديهم به على ما سيكون من شأنه بعد ، ولا بد أنه كان شعرا قريبا في لغته من أولئك العامة الذين يمدحهم به .

ثم علق بفتاة من فتيات بلده يقال لها علوة بنت زريقة ، فأخذ يشبب بها فى شعره ، فترقى شعره شيئا بما رقق حبه لها من وجدانه ورفع من شأن نفسه .

وكان لأبى تمام فى ذلك الوقت مجلس أدبى بحمص من مدن الشام ، يجتمع إليه فيها شعراء تلك النواحي وينشدونه أشعارهم ، فقصده البحترى لينشده شعره فيمن قصده من الشعراء ، فأعجب أبو تمام بشعره أكثر من غيره ، واستبقاه عنده بعد انصراف الشعراء من مجلسه ، ثم قال له : أنت أحسن من أنشدنى ، فحدثنى عن حالك .

فشكا إليه البحترى فقره وما هو فيه من سوء الحال ، فكتب له كتابا إلى أهل معرة النعمان ينبئهم بأمره ، ويخبرهم بما ينتظر له من شأن فى الشعر ، ويوصيهم به خيرا ، فذهب البحترى إليهم بكتاب أبى تمام ، فلما قرؤوه أولوه عنايتهم ، وعملوا على تحسين حاله ، ففرضوا له أربعة آلاف درهم كل عام يستعين بها فى أمره ، وترفع من نفسه ، فيرتفع بذلك شعره .

وقد أمكنه بهذا أن يتصل بأبى تمام ليأخذ الشعر عنه ، فانقطع إليه يسترشد به فى الشعر ، ويحذو حذوه فيه ، إلى أن نبغ فى الشعر وظهر أمره ، حتى كان أبو تمام يقول له : أنت والله يا بنى أمير الشعراء غدا بعدى .

ثم فارق أبا تمام بعد أن أخذ عنه ما أخذ من الشعر ، وقصد بغداد قاعدة الدولة العباسية ، ليظهر أمره بمدح ملوكها وأمرائها

ووزرائها أكثر مما ظهر ، ويمشي بهذا فيما نهجه لنفسه أول أمره من اتخاذ الشعر وسيلة للكسب ، ويجري أيضا على طريقة أستاذه أبي تمام في ذلك .

وكان صيته قد وصل بغداد قبل وصوله إليها ، فسرعان ما اتصل بالمتوكل العباسي ، وبوزيره الفتح بن خاقان ، فقرباه من مجلسهما ، وأعطياه عطايا جزيلة ، وكان له في مدحهما قصائد بديعة هي أجود شعره ، ومكث معهما ببغداد على أحسن حال إلى أن ثار المنتصر بن المتوكل على أبيه ووزيره الفتح وتمكن من قتلهما ، وكان البحتري في مجلسهما حين قتلا يشاهد ماجرى لهما ؛ فرثى المتوكل بقصيدة من أجود ما قيل في الرثاء ، وقد استطرد فيها إلى تشنيع الجناية عليه وعلى وزيره ، وإلى التشنيع على من دبر قتلهما .

ولكنه لم يلبث أن غلبت فيه غريزة التكسب بالشعر على غريزة الوفاء ؛ فاتصل بالمنتصر يمدحه طمعا في جوائزه ، مع أنه لم يلبث في الملك إلا نحو ستة أشهر ، مما يدل على أن البحتري لم يمكث إلا قليلا ثم اتصل به ، وكان انتهاء ملك المنتصر بثورة قامت عليه كما قام بثورته على أبيه ، وقد انتهت بقتله أيضا وقيام المستعين بالملك بعده ، فأخذ البحتري يمدح المستعين ويهجو المنتصر بعد مدحه له ، وكذلك شأن كل شاعر يتكسب بالشعر ؛ لأنه لا يمدح عن صدق ، ولا يثني عن وفاء ، وكذلك شأن كل حكم يقوم بالغلبة دون اختيار الأمة ؛ فلا يجد ملوكه ووزراؤه وأمراؤه من يمدحهم بإخلاص ، ولا يجد

الشعر من يؤدى رسالته الصادقة بينهم ، ولو قام الحكم باختيار الأمة ولم يقم بالتغلب لاستقام أمره ، ولا ستقام أمر الشعر فيه .

ولم يكن ينتظر من البحترى فى نشأته السابقة إلا مثل هذا وأكثر منه ، فقد بالغ فى حب المال حتى باع فيه شعره لكل من يطلبه ، وحتى تقلب فيه بين المدح والهجاء ولم يثبت فيهما على حال، لضعف نفسه ، وقلة وفائه ، فكان يمدح من يمدحهم من الملوك والأمراء والوزراء حين تقوم دولتهم ، فإذا ذهبت دولتهم انقلب عليهم فهجاهم ، وتقرب بهجائهم إلى من قام بعدهم ، حتى يقال إنه هجا منهم نحو أربعين بعد مدحه لهم ، وهذا له دلالته على فساد الدولة فى عهده وعلى سوء أثره فى الشعراء الذين ظهروا فيه .

وقد جمع البحترى من المال ما جمع ، ولكنه كان يبخل به على نفسه وأهله ، فكان من أوسخ خلق الله ثوبا وآلة ، ومن أبخلهم على كل شىء ، حتى إنه كان له أخ وغلام معه فى داره . فكان يقتلهما جوعا . فإذا بلغ الجوع منهما أتياه ببكيان . فيرمى إليها بثمن أقواتهما مضيقا مقترا . ثم يقول لهما : كلا أجاع الله أكبادكما . وأطال إجهادكما .

وكان له غلام رومى يسمى نسيما . ولم يكن حسن الوجه . ولكنه جعله بابا من أبواب الحيل على الناس . فكان يبيعه ويعتمد أن يصيره إلى ملك بعض أهل المروءات . ومن ينفق عنده الأدب ، فإذا حصل فى ملكه أخذ يشبب به ويتشوق إليه ويمدح مولاه حتى يهبه له . ولم يزل هذا شأنه معه حتى مات فكفى الناس أمرا احتياله به

ولا بد أن هذا كان له أثره فى وجوه الدولة ببغداد . فضاقوا بالبحترى وضاق بهم . ولم يجد إلا أن يترك بغداد ويرجع إلى بلده منبج . فاقتنى فيها أملاكا واسعة بما جمعه من المال فى بغداد . وكان بها وال صغير بقدر شأنها بين البلاد ، فكان يتردد إليه بسبب أملاكه ومصالحها ويخاطبه بالأمير تملقا له ، ثم يدركه الأسف على ما صار إليه أمره فى بلده بعد ما كان من شأنه فى بغداد على عهد المتوكل . فيقول :

مضى جعفر والفتح بين مرمل
وبين صبيغ بالدماء مضرج (١)

أأطلب أنصارا على الدهر بعدما
ثوى منهما فى الترب أوسى وخزرجى (٢)

أولئك ساداتى الذين بفضلهم
تحلت أفاويق الربيع الملجج (٣)

مضوا أمما قصدا وخلفت بعدهم
أخاطب بالتأمير والى منبج (٤)

---

(١) جعفر اسم المتوكل ، ومرمل ملطخ بالدم ، ومضرج ملطخ بالدم أيضا .

(٢) يعني الأوس والخزرج من أهل المدينة أنصار النبي صلى الله عليه وسلم استعارهم لأنصاره .

(٣) الأفاويق ما اجتمع من الماء فى السحاب فهو يمطر ساعة بعد ساعة . استعارها لما ناله من خيراتهم ، والملجج الذي يكسو الأرض بسواد الزرع

(٤) أمما قربا أي متقاربين .

وكان يختلف أحيانا إلى بغداد فيمدح أولى الأمر فيها ويأخذ جوائزهم ثم يعود إلى منبج ، وقد قصدها مرة ورثى فيها أبا عيسى ابن صاعد بأبيات وجد فيها بعض حساده عليه مقالا ، فشنعوا عليه بأنه ثنوى (١) ودارت مقالتهم فى الناس . وكانت العامة فى ذلك الوقت غالبة على بغداد ، فخافهم البحترى على نفسه . وأسرع بالخروج من بغداد إلى منبج . ولم يعد إلى بغداد بعد ذلك .

وكانت وفاته بمنبج سنة ٢٨٤ هـ : ٨٩٧ م

منزلته فى الشعر :

أبو تمام والبحترى والمتنبى ثلاثة شعراء من المحدثين سارت بذكرهم الركبان ، وعنى علماء الأدب بالكلام عليهم والموازنة بينهم ، وتأليف الكتب فى ذلك ، والبحترى عندهم هو الشاعر المطبوع ، أما أبو تمام والمتنبى فكانا من الشعراء الحكماء ، هم يجعلون شعر البحترى من نوع شعر أبى نواس ، ويذهبون إلى أنه لم يأت بعد أبى نواس من هو أشعر من البحترى ، ولا بعد البحترى من هو أطبع منه على الشعر ، ولا أبدع منه فى الخيال الشعرى لأنه كان لنشأته البدوية بعيدا فى شعره عن مذاهب الحضريين وتدقيقهم وفلسفتهم . فكان ينطق فى شعره عن عاطفته لا عن عقله . ولا يجهد نفسه فى اختراع معان دقيقة . أو ابتكار تشبيهات واستعارات جديدة . وإنما كان يقصد إلى المعانى المطرقة

(١) يقول بالهين اثنين كالمجوس

فيظهرها فى ثوب جميل من فصاحته وجزالته المطبوعة . فيجىء شعره حسن الديباجة . صقيل اللفظ . سلس الأسلوب وبهذا يمتاز عند من يرى أن الشعر من وحى العاطفة على صاحبيه : أبى تمام والمتنبى .

والبحترى عندى من أولئك الشعراء الذين عملوا على إحياء الشعر القديم ، وعلى إعادته إلى متانته وجزالته القديمة . وبهذا يعد عندى من مدرسة أستاذه أبى تمام . بل البحترى كان أكثر تقليدا للقدماء من أستاذه . لأنه لم يتأثر فى شعره بما تأثر به من الفلسفة ونحوها . وينكر من سبق من علماء الأدب إلى رأيهم فيه أنه تأثر بأبى تمام إلى حد كبير . فأخذ كثيرا من معانيه . وجاراه إلى حد ما فى استعمال البديع وتدقيق المعانى وغيرهما من طريقته .

وقد كثر الخلاف بين علماء الأدب فى الموازنة بين أبى تمام والبحترى . فكان للبحترى أنصار يقدمونه على أبى تمام كما سبق حتى إنهم يختمون الشعر العربى بشعره ، وكان لأبى تمام أنصار يقدمونه على البحترى . ويفضلون تدقيقه وتعمقه على سهولة البحترى .

وكان البحترى لايجارى أنصاره فى تعصبهم له على أستاذه أبى تمام . ويقول فى ذلك : والله ما أكلت الخبز إلا به . ثم يقول فى موازنة شعره بشعره قول منصف : إن جيد أبى تمام خير من جيدى . ووسطى خير من وسط أبى تمام ورديئه . وهذا وفاء لأستاذه يحمد عليه ماسبق من قلة وفائه لأصحابه . وعلى أنه كان أكثر الشعراء

فخرا بشعره . إذ كان يغلو فى فخره به ويتشادق عند إنشاده . حتى عد من أبغض الناس إنشادا . لأنه كان يتزاور عند إنشاده في مشيه مرة جانبا . ومرة القهقرى . ويهز رأسه مرة . ومنكبيه أخرى ويشير بكمه . ويقف عند كل بيت ، ويقول : أحسنت والله ثم يقبل على المستمعين فيقول : مالـكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله مالا يحسن أحد أن يقول مثله .

ومما يحكى عنه فى هذا أنه فعله مرة أمام المتوكل ، فضجر منه ، وسلط عليه شاعرا كان فى مجلسه ؛ فقطع عليه شعره ، وارتجل شعرا هجاه به ، فخرج غاضبا إلى بعض أصحابه ، واستشاره فى الخروج من بغداد بغير إذن فنهاه صاحبه وقال له : إن الملوك تمزح بأعظم مما جرى لك . فسمع له واحتمل مافعله المتوكل معه ، وأقام ببغداد على هذا الحال الذى لا يحسد عليه .

وقد تصرف البحترى فى فنون الشعر الذى تصرف فيها الشعراء المتكسبون ، فأجاد القول فى هذه الفنون ماعدا الهجاء ، فإن أشعاره فيه لا تشاكل طبعه ، ولا تليق بمذهبه ، وتنبىء بركاكتها وغثاثة ألفاظها عن قلة حظه فى الهجاء ، وذكر صاحب الأغانى أن ابنه أبا الغوث أرجع السبب فى هذا إلى أن أباه لما حضرته الوفاة دعا به وأمره أن يجمع كل شىء قاله فى الهجاء فيحرقه ، لأنه قاله فى وقت شفى غيظه ، وربما يناله منه سوء بعد موته ، فأحرقه كما أمره به . ثم استدرك ما ذكره أبو الغوث بأن ما بقى من هجاء أبيه إذا صح يدل على ما أحرق منه ؛ وأنه كان على شاكلته ، وعندى أن ضعف

أشعاره فى الهجاء ترجع إلى ضعف نفسه ، لأن الهجاء يحتاج إلى نفس قوية لا تخاف الأذى ؛ ويؤيد هذا ما ذكره فى دعوة ابنه إلى إحراقه لخوفه أن يصيبه سوء منه ، على أن ضعفه فى الهجاء لا يضيره بشىء لأن كثيرا من الشعراء كان يفتخر بعجز لسانه عنه ؛ وكل ماورد من هجاء الشعراء الهجائيين لا خير فى جيده ولا فى رديئه .

هذا ولم يقتصر تقليد البحترى لأستاذه أبى تمام على الشعر ، بل كان يقلده أيضا فى التأليف ، ومن ذلك كتاب الحماسة للبحترى ؛ وكتاب معانى الشعر له

مختارات من شعر :

قال يمدح المتوكل ويذكر خروجه يوم الفطر :

أخفى هوى لك فى الضلوع وأظهر
وألام فى كمد عليك وأعذر(١)

وأراك خنت على النوى من لم يخن
عهد الهوى وهجرت من لا يهجر

وطلبت منك مودة لم أعطها
إن المعنى طالب لا يظفر(٢)

هل دين علوة يستطاع فيقتضى
أو ظلم علوة يستفيق فيقصر(٣)

(١) كمد : حزن شديد

(٢) المعني الذي وقع فى العناء والتعب من الهجر

(٣) فيقصر : يمتنع

بيضاء يعطيك القضيب قوامها
ويريك عينيها الغزال الأحور(١)

إلى أن يقول :

إني وإن جانبت بعض بطالتي … وتوهم الواشون أني مقصر(٢)
ليشوقني سحر العيون المجتلي … ويروقني ورد الخدود الأحمر
الله مكن للخليفة جعفر … ملكا يحسنه الخليفة جعفر
نعمي من الله اصطفاه بفضلها … والله يرزق من يشاء ويقدر
فاسلم أمير المؤمنين ولا تزل … تعطي الزيادة في البقاء وتشكر
عمت فواضلك البرية فالتقى … فيها المقل على الغنى والمكثر
فالبر صمت وأنت أفضل صائم … وبسنة الله الرضية تفطر(٣)
فانعم بيوم الفطر عينا إنه … يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بجحفل … لجب يحاط الدين فيه وينصر(٤)
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت … عددا يسير بها العديد الأكثر
فالخيل تصهر والفوارس تدعي … والبيض تلمع والأسنة تزهر(٥)
والأرض خاشعة تميد بثقلها … والجو معتكر الجوانب أغبر(٦)

---

(١) القضيب الغصن المعتدل . والأحور الذي اشتد بياض عينه وسوادها
(٢) بطالتي تعطلي وتفرغي للهو
(٣) البر : الطاعة
(٤) جيش كثير العدد . لجب ذي جلبة أي صياح لكثرته
(٥) البيض : السيوف والأسنة الرماح أو أطرافها
(٦) تميد تتحرك وتضطرب

والشمس مانعة توقد بالضحى طورا ويطفئها العجاج الأكدر (١)
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلت
تلك الدجى وانجاب ذاك العثير (٢)

وافتن فيك الناظرون فأصبع يومى إليك بها وعين تنظر (٣)
ذكروا بطلعتك النبى فهللوا لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المصلى لابسا نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع لله لا يزهى ولا يتكبر
فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لمشى إليك المنبر
أيدت من فصل الخطاب بحكمة تنبى عن الحق المبين وتخبر

إلى أن يقول فى ختامها :

فاسلم بمغفرة الإله فلم يزل يهب الذنوب لمن يشاء ويغفر (٤)
الله أعطاك المحبة فى الورى وحباك بالفضل الذى لا ينكر
ولأنت أملأ للعيون لديهم وأجل قدرا فى الصدور وأكبر

وهو يبدأ فى هذا مدحه بالنسيب على عادة الأوائل من الشعراء ثم يمضى فى هذه المبالغات فى مدح المتوكل ، ولم يكن فيه شىء من تلك الأوصاف التى أضفاها عليه ، وإنما كان ملكا جبارا مغتصبا للملك من الأمة ، وفى عهده ابتدأ انحطاط الدولة العباسية ، بما قضى

---

(١) مانعة : مرتفعة
(٢) انجابت : زالت ، والدجى : الظلمة ، والعثير : الغبار
(٣) يومى يوماً أي يشار
(٤) يهب الذنوب : يسامح فيها ولا يؤاخذ عليها

علوم الفلسفة ، وبما حجر من حرية الرأى ، وبما دعا إليه من إيثار التقليد على الاجتهاد ، وأكثر ديوانه مدائح من هذا الشكل ، يتاجر فيها ولا يقصد وجه الحق

وقال فى غلامه نسيم :

بأبى أنت كيف أخلفت وعدى وتثاقلت عن وفاء بعهدى
لم تجد مثل ما وجدت وما أنـ صفت إن لم تجد مثل وجدى[1]
رب يوم أطعت لك الفحـ ـاوغى فى حسن وجهك رشدى
حسن عينيك قهوتى وثنايا ك رضابى وورد خديك وردى[2]
لا أرتنى الأيام فقدك ماعشـ ـت ولا عرفتك ماعشت فقدى[3]
أعظم الرزء أن تقدم قبلى ومن الغبن أن تؤخر بعدى[4]
حسدا أن تكون إلفا لغيرى إذ تفردت بالهوى فيك وجدى

والنسيب بالمذكر من أقبح ما ظهر فى الشعر بعد الإسلام ، لاستبحار الحضارة بعده ، والحضارة إذا استبحرت وقام فيها مثل أولئك الملوك ، تركوها طليقة لتنشر الفساد فى الناس ، ليكون لهم من مفاسدهم ما يعميهم عن مفاسد ملوكهم .

---

(١) لم تجد : من الوجد وهو المحبة

(٢) قهوتى خمرى أى يسكرنى مثلها والرضاب : الريق المرشوف وفتات المسك

(٣) دعاء بأن يبقى كل منهما الاخر ولا يفقده

(٤) الرزء : المصاب ، والغبن أصله غبن البيع وهو نقص الثمن

ابن المعتز

نسبه ومولده :

هو عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد ، ينتهى نسبه إلى العباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان مولده ببغداد قبل مقتل جده المتوكل بأربعين يوما ، وكان ابنه المعتز حين قتل فى حدود العشرين من عمره .

نشأته وسيرته :

نشأ عبد الله فى رعاية أبيه وهو فى حدود العشرين من عمره كما سبق ، إذ كان فتى يحب اللهو والشرب والغناء ، ويقول من الشعر بعض مقطعات غنائية يغنيه فيها جواريه وندماؤه من المغنين ، وهى عيشة لا يحمد عليها فتى قد يكون فى يوم ما ملكا على المسلمين ، بل إنه لم يلبث إلا قليلا حتى تولى الملك بعد قتل أخيه المنتصر لنحو ستة أشهر مضت على قتله لأبيه ، فمضى بعد أن آل الملك إليه فى تلك الحياة اللاهية ، لأن أولئك الملوك لم يصر لهم شىء من الأمر بعد أن استبد بهم مواليهم من الترك ، وبعد أن هانت عليهم دماؤهم إلى ذلك الحد ، ولهذا لم يلبثوا أن قتلوا المعتز أيضا ، وكان ابنه المعتز حين قتل فى الثامنة أو التاسعة من عمره .

فلما قتل المعتز قامت أمه قبيحة بتربية ابنه عبد الله ، وكانت رومية الأصل ، فأحضرت له كبار العلماء فى العلوم الدينية والأدبية ، مثل أبى العباس المبرد ، وأبى العباس ثعلب ، وأحمد بن سعيد الدمشقى الأديب المتفلسف ، وهو الذى عهد إليه تربيته من صغره ، وكان قد اختص به حتى كان يغضب إذا ضم إليه غيره ، كما غضب حين ضم إليه البلاذرى المؤرخ .

ولم يلبث عبد الله أن ظهرت براعته من صغره فى الشعر وعلوم الأدب ، إذا ورث الشعر فيما ورثه عن أبيه ، وورث عنه أيضا حب اللهو والشرب والصيد ، وما إلى ذلك من ضروب اللهو ، وقد تأثر بما أصاب جده وأباه ، فرأى أن يبعد عن سياسة الدولة ، وأن يقطع أمله من الملك ، وأن يشغل نفسه بتلك الحياة اللاهية ، وأن تكون صلته بالملوك العباسيين صلة شاعر عالم أديب ، لا صلة أمير يتطلع إلى ما لهم من الملك .

فكان يمدح ملوك بنى العباس كغيره من الشعراء ، وممن مدحه منهم المعتضد ، وكانت الدولة قد نهضت بعض النهوض فى عهده ، حتى أمكنه أن يسكن الفتن التى كادت تعصف بالدولة ، وأن يقمع الذين يقومون فيها بالثورة بعد الثورة ، ولم يكن ما أصاب أباه وجده ليبغضه فى دولتهم ، بل كان يمدح ملوكها بإخلاص ، ويتعصب لهم على العلويين الذين كانوا يرون أنهم أحق بالدولة منهم ، فكان يطعن عليهم بشدة فى شعره ، ويؤيد فيه حق العباسيين فى الدولة دونهم ، ولم تكن هذه رسالة الشعر فى ذلك الفساد ، بل

كانت رسالته أن يعمل على إصلاح تلك السياسة التى استبدت بالرعية ولم تجعل لهـا شأنا فى إختيار من يصلح لسياستها من العباسيين أو العلويين أو غيرهم .

ولم يكن ينتظر من ابن المعتز فى تلك الحياة اللاهية إلا أن يمضى فى الشعر على مامضى غيره من الشعراء ، ويقتضينا الإنصاف أن نذكر أن حياته لم تكن مصروفة كلها فى اللهو ، بل كانت مقسمة بين اللهو والجد، وكان فى لهـوه شاعرا خليعا قد فتن بجارية اسمها نشر ، وبغلام اسمه نشوان ، وله فيهما أشعار وأخبار لا داعى إلى ذكرها فى سيرته هنا ؛ وكان فى جده عالمـا أديبا له منزلته الكبيرة بين علماء الأدب ، ويكفى فى عظم منزلتـه فى ذلك أنه ينسب إليه اختراع عـلم البديع بكتابه الذى ألفه باسم هـذا العلم ، وله غيره من الكتب ، مثل الكتاب الزهر والرياض ، وكتاب مكاتبات الإخوان بالشعر ، وكتاب الجوارح والصيد ، وكتاب السرقات ، وكـتاب أشعار الملوك ، وكتاب الآداب ، وكتاب حلى الأخبار ، وكتاب طبقات الشعراء ، وكـتاب الجامع فى الغناء ، وهو من الكتب التى اعتمد عليها صاحب كـتاب الأغانى .

وكان إلى هـذا حسن العـلم بصناعة الموسيقى ، وله مذاهب ومجادلات مع علماء عصره فى الغناء ، وكان يميل إلى التجديد فيمثل إبراهيم بن المهـدى من العباسيين قبله ؛ فلا يرى بأسا فى أن يعمد الموسيقى أو المغنى إلى لحن قديم فيغير فيه بعض التغيير . ليلائم بين لحنه وحنجرته . وكان له أيضا مذهب عظيم فى نقد الشعر يدل على

دقة نظره ولطف مأخذه إلى غير هذا مما يدل على أن حياته لم تكن كلها مصروفة فى اللهو .

ويشاء الله أن تطرق السياسة باب ابن المعتز في آخر حياته . وأن يكون لها معه مأساة أشد من مأساة أبيه وجده . فيتفق جماعة من رؤساء الأجناد ووجوه الكتاب على خلع المقتدر بن المعتضد ، وكان صغير السن لا يصلح للملك . على أن يولوا مكانه عبد الله بن المعتز . وهو معتكف في داره لا يطلب هذا منهم ، فخلعوا المقتدر وبايعوا عبد الله مكانه ، وكان من يخلعونه لا يقدر على مخالفتهم . كما كان من يولونه لا يقدر على مخالفتهم أيضا . فأقام عبد الله فى الملك يوما وليلة . ثم تجمع أصحاب المقتدر فحاربوا أعوانه وشتتوهم وأعادوا المقتدر إلى الملك . فاختفى عبد الله في دار بعض أصحابه فبحث عنه المقتدر حتى عثر عليه فيها ، فسلمه إلى مؤنس الخادم ليقتله ، فقتله وسلمه إلى أهله ليدفنوه ، وكان هذا سنة ٢٩٦ هـ : ـ ٩٠٨ م .

منزلته فى الشعر :

كان ابن المعتز من الشعراء المطبوعين الذين لا يتكلفون ولا يتعملون إذا مضى على سجيته فى التغزل ونحوه من ضرب لهوه ، فاذا مضى فى الوصف ـ وكان من أبرع الشعراء فيه ـ تأثر بالبديع الذى أتقن معرفته ونسب إليه اختراع علمه ، فأتى فيه بالتشبيهات البديعة ، والاستعارات الجميلة ، متأثرا بما كان يحيط به من مظاهر الجمال ومحاسن الطبيعة فى بيئته المترفة ، وهو فى هذا يقرب جدا من

مدرسة أبى تمام ، ولهذا كان من شعره ثروة ضخمة من الشواهد لعلماء البلاغة ، كما كان من شعر أبى تمام والبحترى والمتنبى من زعماء هذه المدرسة .

وكان بعض علماء الأدب يطعن فى شعره إرضاء للمقتدر ، فيخلط بين الأدب والسياسة ، وهو طعن غير برىء كما ذكر صاحب الأغانى وقد ذهب فى شعره مذهبا وسطا بين أنصاره وخصومه ، فذكر أنه إذا كانت فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فان فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ، وأخرى ظريفة من أشعار الملوك فى جنس ماهم بسبيله ، ثم أرجع هذا إلى البيئة التى نشأ فيها ، وذكر أنه لم يكن له أن يتشبه بفحول الجاهلية إذا وصف الصبوح (١) فى مجلس شكل ظريف ، بين ندامى وقيان ، وعلى ميادين من النور والبنفسج والنرجس ، وما إلى ذلك ، فيعدل عما يشبهه من الكلام السبط الرقيق الذى يفهمه كل من حضر إلى جعد الكلام ووحشيه وإلى وصف البيد والمهامه والظبى والظليم والناقة والجمل والديار والقفار ونحو ذلك ، فاذا عدل عنه وأحسن لا يصح أن يقال له مسىء ولا أن يغمط حقه كله إذا أحسن الكثير ، وتوسط فى البعض ، وقصر فى اليسير ، وهذا هو الحق عندى فى أمره وبه يكون قريبا من مدرسة أبى تمام فى ناحية من شعره ، وقريبا من قدامى المولدين فى ناحية أخرى .

وقد تصرف ابن المعتز فى كثير من فنون الشعر ، فقاله فى المدح

---

(١) شرب الخمر صباحا

وإن كان قليلا فيه ، لأن مقامه فى العباسيين كان ينبو عنه ، وقال فى التغزل وما إليه ، وقال فى السياسة مناصراً للعباسيين على العلويين كما سبق .

وله فى الشعر التعليمى منظومتان :

إحداهما فى نظم سيرة المعتضد ، وفيها كثير من أمور الدولة ، وظلم الحكام ، إلى غير هذا من المفاسد التى قضى المعتضد عليها ، واستحق المدح عليها عنده .

والثانية فى ذم الصبوح ، وفيها كثير من الظرف والدعابة ، تخيل فيها صاحبا له أنكر عليه شرب الخمر فى المساء ، فأخذ يحس له الصبوح على الفيوق ، لأنه يظهر الشارب على ما فى البساتين من جمال ثم يستطرد إلى وصف الرياض بتشبيهاته البديعة ، ومعانيه المتكررة إلى غير هذا مما فى هذه القصة التى تشبه القصص التمثيلية فى عصرنا .

مختارات من شعره :

قال يمدح بعض ملوك بنى العباس ويصف قصراً بناه :

سلمت أمير المؤمنين على الدهر
ولا زلت فينا باقيا واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل
فلازال معموراً وبورك من قصر (١)

---

(١) الثريا : اسم القصر

فليس له فيما بنى النـاس مشـبه
ولا ما بناه الجن فى سالف الدهر(1)
وما زال يرعاه الإمام برأيه
وبالعز والتقـديم والنهى والأمر
فتم فما فى الحسن شيء يريده
لسان ولا قلب بقول ولا فكر
سيثنى عليـه من محاسن قصـره
مدائح ليست من كلام ولا شعر
يشـير إلى رأى مصيب وحكمة
وجود لدى الإنفاق بالبيض والصفر(2)
جنان وأشجار تلاقت غصونهـا
فأورقن بالأثمار والورق الخضر
ترى الطير فى أغصانهن هواتفـا
تنقـل من وكر لهن إلى وكر
هجرت سواهـا كل دار عرفتها
وحق لدار غير دارك بالهجـر
وبنيان قصر قد علت شرفاته
كصف نساء قد تربعن فى الأزر(3)

---

(1) مابناه الجن زعم من مزاعم العرب فى جاهليتهم
(2) البيض : الدارهم لأنها من الفضة ، والصفر : الدنانير لأنها من الذهب
(3) شرفاته : مثلثات أو مربعات تبني متقاربة فى أعلاه ، والأزر : جمع إزار

وأنهار ماء كالسلاسل فجرت
لترضع أولاد الرياحين والزهر
وميدان حسن تركض الخيل وسطه
فيؤخذ منها ما يشاء على قدر
إذا ما رأت ماء الثريا ونبته
يسير وثوب الكلب فيهن والصقر
عطايا إله منعم كان عالما
بأنك أوفى الناس فيهن بالشكر
حكمت بعدل لم ير الناس مثله
وداويت بالرفق الجموح وبالقهر
ثم قال :
وما ليث غاب يهدم الجيش خوفه
بعشية وثاب على النهى والزجر
يجر إلى أشباله كل ليلة
عقيرة وحسن أو قتيلا من السفر[1]
يزعزع أحشاء البلاد زئيره
ويبطل أبطال الرجال من الذعر
بأجرأ منه حد بأس وعزمة
إذا ما ترى قلب الجبان إلى النحر
فكل أناس يشهرون أكفهم
دعاء له بالعز فيهم وبالنصر

(١) الأشبال : أولاد الأسد

وقال في الخمر وما إليه :

لا عذر للعاذل في الكاس
فما أرى في الكاس من باس[1]

وبلى من الناس ومن لومهم
ما لقى الناس من الناس[2]

مخطف الخصر هضيم الحشا
مشرق بالوعدة مكاس[3]

وقام في العاتق منديله
يدير كأسا بين جلاس[4]

وشمر الذيل إلى خصره
وحثنا بالرطل والكاس[5]

وطالما عذبنى هجره ووكل القلب بوسواس
لما أتتنى رسله بالرضا أنسيت ما مر على راسى
ولم أزل والليل ستر لنا من دون رقاب وحراس
أشكو إلى غمزة عينيه ما قاسيته من قلبه القاسى
فى ليلة ما مثلها ليلة لست لها ما عشت بالناسى

---

(١) باس بأس بتخفيف الهمز كالكاس
(٢) ما لقي استفهام تعجبي
(٣) مخطف الخصر : دقيقه . وكذلك هضيم الحشا ومكاس : مماطل
(٤) العاتق : ما بين المنكب والعنق
(٥) حثنا : أسرع الينا

وقال فى الشيب :

من يشترى مشيبى ... بالشعر الغربيب [1]
من يشترى مشيبى ... وليس بالمصيب
نور الرؤوس واللحى ... وظلمـــة القلوب
أين الغوانى والصبا ... والعذر فى الذنوب [2]
هيهات ليس شيبى ... من ذاك بالقريب
قد اغتدى بقارح ... مسوم يعبوب[3]
ينفى الحصا بحافر ... كالقدح المكبوب
وضحكت غرته ... فى موضع التقطيب[4]
إذا أغذت أربعة ... لقنصها المطلوب [5]
لم ينقطع غبارها ... قبل دم مصبوب

وقال فى مدح المكتفى :

للمكتفى دولة مباركة ... عاش بها الناس بعدما ماتوا
يلوح من تحت تاجه قمر ... وافى به للسعود ميقات[6]
خليفة لا يخيب سائله ... سرت به الأرض والسماوات
ما ولدت هاشم له شبها ... من أين من أين مثله هاتوا

---

(١) الغربيب الشديد السواد
(٢) الغوانى الحسان ، والصبا الميل الى اللهو واللعب أو الصغر
(٣) القارح من ذوي الحافر ماشق نابه وطلع ، ومسوم معلم ، ويعبوب سريع
(٤) التقطيب العبوس (٥) أغذت أسرعت ، وقنصها مصيدها
(٦) السعود كواكب عشرة يقال لكل واحد منها سعد ، وكانوا يتفاءلون بها وميقات موعد

وهذا وما سبق له فى المدح من مبالغاتهم فى مدح أولئك الملوك، مع انهم كانوا بمكان من الضعف ، ولم يكن لهم من الأمر شىء ، وإنما كان لمواليهم من الترك ، وكذلك لم يكونوا بما يصفونه من العدل ونحوه ، ويكفى أن ملكهم كان يقوم على الغلبة والقهر ، لا على رضا واختيار من الأمة ، ولم يكن لابن المعتز أن يمدح بغير هذا وهو ينتصر لهم فى هذا الملك المغتصب ، ويرى أنهم أحق به من غيرهم ، وكان فيما أصيب به فى أبيه وجده ما يجعله يقتصد فى مدحهم والتعصب لهم .

الشريف الرضى

نسبه ومولده :

هو أبو الحسن محمد بن أبى أحمد الحسين بن موسى الأبرش ، ابن محمد أبى الطيب ، بن موسى أبى سبحة ، بن ابراهيم المرتضى ، ابن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن على زين العابدين ، بن الحسين الشهيد ، بن على ابن أبى طالب ، رضى الله عنهم جميعا ، وأمه فاطمة بنت الحسين بن الحسن الناصر الأصم صاحب الديلم بن على ، بن الحسن ، بن على ، بن عمر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، فهو شريف النسب لأبيه وأمه ، مما كان له أثر عظيم فى علو همته وكرم نفسه .

وكان مولده سنة - ٣٥٩ هـ — ٩٦٩ م - ببغداد قاعدة الدولة العباسية .

نشأته وسيرته :

نشأ الشريف الرضى فى ذلك البيت الكريم ، وكان أخوه الشريف المرتضى يقاربه فى السن ، وكان أبوه وأجداده على مذهب الشيعة الإمامية ، يرون أنهم أحق بالخلافة من العباسيين ، فكانوا يتحينون لها الفرص ، ويعملون على الوصول إلى حقهم ، وكان

العباسيون يستريبون بهم من أجل ذلك ، حتى إن الشريف الرضى نشأ هو وأخوه الشريف المرتضى وأبوهما بعيد عن بغداد فى منفاه لاسترابة العباسيين فيه .

فتولت أمهما تربيتهما لتعدهما لما يليق بشرفهما من المراتب العالية، والدرجات الرفيعة ، فنشأ كل منهما عالما أديبا ، ولكن الشريف الرضى غلب عليه الشعر ، أما الشريف المرتضى فغلب عليه الفقه والكلام والجدل ، وهو من أكبر أئمة الشيعة فيما غلب عليه من ذلك .

وكان الشريف الرضى ممن تأثر فى شعره بمدرسة أبى تمام،فكان شعره ضخم اللفظ ، دقيق المعانى، وقد قال الشعر وهو فى العاشرة من عمره ، ومما قاله وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، يخبر أباه فى منفاه بوفاة عضد الدولة ملك بنى بويه ، وكانوا على مذهب الشيعة الإمامية:

أبلغا عنى الحسين ألوكا
أن ذا الطود بعد بعدك ساخا[١]
والشهاب الذى اصطلت لظاه
عكست ضوءه الخطوب فباخا[٢]
والفنيق الذى تدرع طول ال
أرض خوى به الردى وأناخا[٣]

---

(١) ألوكا رسالة ، والطود الجبل العظيم استعارة لعضد الدولة ، ساخ غاب وذهب
(٢) باخ انطفأ
(٣) الفنيق الفحل المكرم لا يؤذي ولا يركب لكرامته ، خوي به الردي أسقطه

وهو شعر يدل على تأثره بتلك المدرسة إلى حد بعيد ، لنشأته في بيت عربي ، ولأخذه بدراسة أدبية منذ نشأته ، وقد سار على هذا النهج في شعره ، حتى بلغ به مبلغ فحول تلك المدرسة ، واستعمله في أغراضها من المدح والفخر والغزل وما إليها من أغراض الشعر .

ولكنه لم يتكسب بشعره كما تكسب أبو تمام والبحتري ، بل كان يمدح ملوك بني العباس وكبراء الدولة مدح الند للند، ولمناسبات تقتضي ذلك المدح ، كما يقول للقادر العباسي :

عطفا أمير المؤمنين فإننا   في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت   أبداً كلانا في العلاء معرق[1]
إلا الخلافة طوقتك فإنني   أنا عاطل منها وأنت مطوق

وكان كبراء الدولة يعرفون له كرم نفسه فيكرمونه ويرفعون منزلته ، حتى إنه دخل يوما على فخر الملك أبي غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة وسلطان الدولة من بعده ، فرفع منزلته وأجلسه في دسته[2] ثم قبع إلى جانبه وعظمه وأجله ، وخلى ما بين يديه من القصاصات والرقاع[3] وأقبل عليه يحادثه ويستمع إليه إلى أن انصرف . ثم دخل على الوزير بعده أخوه الشريف المرتضى ، فلم يفعل معه ما فعل مع الشريف الرضي ، بل اكتفى بالترحيب به وقضاء

---

(١) معرق استعارة من عرق الشجر امتدت عروقه في الأرض.

(٢) الدست صدر البيت والمجلس .

(٣) الرقاع جمع رقعة وهي القطعة التي تكتب من الورق.

حاجته . وكان فى المجلس أبو حامد أحمد بن محمد الأسفراينى الفقيه الشافعى ، فاستغرب ما فعله الوزير وقال : أصلح الله الوزير ، هـذا المرتضى الفقيه المتكلم صاحب الفنون ، وهو الأمثل والأفضل[1] . وقد رأيتك تجل أخاه الشاعر وتفعل معه ما لم تفعله مع أخيه . فقال الوزير وقد أخذ بيده كتابا . اتصـل به أنه قد ولد للرضى ولد ، فأنفذت إليه ألف دينار . وقلت : هـذه للقابلة ، وقد جرت العادة أن يحمل الاصدقاء إلى أخلائهم وذوى مودتهم مثل هذا فى مثل هذه الحال . فردها و كتب إلى هذا الكتاب يعتذر فيه بقوله : إنا أهل بيت لا يطلع على أحوالنا قابلة غريبة ، وإنما عجائزنا يتولين هـذا الأمر من نسائنا ، ولسن ممن يأخـذ أجرة ولا يقبلن صلة . وقد رددت إليه المبلغ ثانية وقلت للحاجب : يفرقه الشريف على ملازميه من طلاب العلم . فقال الشريف للحاجب حين وصل : ها هم حضور . فليأخذ كل واحد ما يحتاج إليه . فقام رجل فأخذ جزء من دينار ورجع . فسأله الشريف عن ذلك . فقال : احتجت إلى دهن السراج ليلة ولم يكن خازنك حاضرا . فاقترضت الدهن من بقال . وقد أخذت هذه القطعة لأدفعها إليـه عوض دهنه . وقد عاد الحاجب بالدنانير وذكر لى القصة . وزاد بأن الشريف أمر بخزائنه فصنع لها مفاتيح بعدد طلاب العلم عنده ليتناول كل منهم ما يحتاج إليه عند غياب الخازن . أما المرتضى فقد أصاب أرضا له ضريبة تعادل الدينار الواحد . حملناها أرضه وأرض جيرانه بغية حفر قناة يسـتفيد منها

---

(١) هـذا يدل على تقارب ما بين العلماء المنصفين من أهل السنة والشيعة فى ذلك العهد .

الجميع ، فكتب إلى طالبا إسقاط الدينار ، وبعث برسالة كلها هز أريحية ، فأيهما ترى أولى بالتعظيم والتبجيل : هـذا العالم المتكلم الفقيه الأوحد ، أم ذاك الذى اشتهر بالشعر ونفسه تلك النفس ؟ فقال أبو حامد : والله ما وضع سيدنا الوزير الأمر إلا فى موضعه ، ولا أحله إلا محله .

والقصة تفيد أن الرضى كان يجمع بين الشعر والعلم ، وإن لم يبلغ فى العلم مبلغ أخيـه المرتضى ، فكان له طلاب يطلبون علمه كما يطلبون شعره ، وكان له مصنفات تدل على مبلغه فى العلم : منها متشابه القرآن ، ومجازات الآثار النوية ، ونهج البلاغة ، وتلخيص البيان عن مجازات القرآن ، والخصائص ، وسيرة والده ، والحسن من شعر الحسين ـ منتخب شـعر ابن الحجاج ـ وأخبار قضاة بغداد ، ورسائله وتقع فى ثلاثة مجلدات ، وديوان شعره ، وذكر الشيخ أبو الحسن العمرى أنه شاهد مجلدا من تفسير القرآن منسوبا إليه مليحا حسنا ، يكون بالقياس فى كبر تفسير أبى جعفر الطوسى أو أكبر .

وقد تحسنت العلاقة بين أبى أحمـــد الحسين وولديه الرضى والمرتضى وبين العباسيين ، فعاد أبو أحمد إلى بغداد ، وتولى الرضى نقابة الطالبين من العباسيين ، وخفت حدة النزاع بينهما على الخلافة حين صارت خلافة اسمية لا يحسد العباسيون عليها ، وحين اسـتبد ملوك بنى بويه وغيرهم بهم ، وصاروا يولون ويعزلون كما يشاءون فيهم ، فلم يجد العلويون والعباسيون إلا أن يتقرب بعضهم إلى بعض

فى هـــذه المحنة . لأنهم أبناء عم . ولم يبق لهم بنو بوية وغيرهم ما يختلفون عليه .

ومن هـذا ماحصل من الرضى حين قام بنفسه شىء ممـا كان يقوم بنفوس العلويين فقال :

ما مقامى على الهـوان وعندى
مقـــول صارم وأنف حمى
وإباء محلق بى عن الضيـ
ـيم كما راغ طائر وحشى[1]
ألبس الذل فى ديار الأعادى
وبمصـــر الخليفة العـــلوى[2]
من أبوه أبى ومولاه مولا
ى إذا ضامنى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سـيدا النـا
س جميعـا محمـد وعلى

فعقد القادر بالله العباسى مجلسا استحضر فيه والد الرضى وأخاه وطائفة من وجوه القوم ، ثم قال لوالد الرضى : قل لولدك محمد . أى هوان قد أقام عليه عندنا ؟ وأى ضيم لقى من جهتنا ؟ وأى ذل أصابه فى ملكنا ؟ وما الذى يعمل معه صاحب مصر لومضى إليـه ؟ أكان يصنع إليه أكثر من صنيعتنا ؟ ألم نوله النقابة ؟ ألم نحكمه فى

(١) راغ ذهب ههنا وههنا .

(٢) يعنى خليفة الفاطميين بمصر .

المظالم ؟ ألم نستخلفه على الحرمين والحجاز وجعلنا أمير الحجيج ؟ فهل كان يحصل من صاحب مصر أكثر من هذا ؟

ويغلب على ظني أن هـذا الشعر مدسوس على الرضى . لأن الفاطميين بمصر كانوا شيعة إسماعيلية . وأبو أحمد وأولاده كانوا شيعة إمامية ، وكان بين الطائفتين من الخلاف مثل ما كان بين العباسيين والعلويين .

وكانت وفاة الرضى سنة ٤٠٦ هـ : ١٠١٥ م ، وقد ثار كثير من الشعراء . ورثاه أخوه المرتضى فقال :

يا للرجال لفجعة جذمت يدى
ووددت لو ذهبت على براسى (١)
ما زلت أصدر وردها حتى أتت
فحسوتها فى بعض ما أنا حاسى (٢)
ومطلتها زمنا فلمـا صممت
لم يثنها مطلى وطول مكاسى (٣)
لله عمرك من قصير طاهر
ولرب عمر طال بالأدناس

---

(١) جذمت قطعت بسرعة .

(٢) ورد الماء ذهب اليه ، وصدر عنه رجع بعد الورد ، حسوتها شربتها شيئا بعد شيء .

(٣) مكاسي مأخوذ من ماكسة شاكسة .

منزلته فى الشعر :

قيل : إن الرضى أشعر قريش . وحسبك أن يكون أشعر قبيلة فى أولها مثل الحارث بن هشام . وهبيرة بن أبى لهب . وعمر بن أبى ربيعة ، وفى آخرها مثل محمد بن صالح الحسينى . وعلى بن محمد الحمانى ، وابن طباطبا الأصفهانى . وإنما كان أشعر قريش لأن المجيد فيها ليس بمكثر ، والمكثر ليس بمجيد، والرضى قد جمع بين الإكثار والإجادة ويرد على هذا عندى عمر بن أبى ربيعة ، فقد جمع بين الإكثار والإجادة أيضا، إلا أن يقال إن أكثر شعره فى الغزل .

مختارات من شعره :

قال فى الغزل :

هل ناشد لى بعقيق الحمى غزيلا مر على الركب[1]
افلت من صائده غرة وعاد بالقلب إلى السرب[2]
منعم يعطف منه الصبا لعب الصبا بالغصن الرطب[3]
بلادة النعمة فى طبعه وربما ناقش فى الحب
أما اتقى الله على ضعفه معذب القلب بلا ذنب[4]
ياما طلا لى بديون الهوى من دل عينيك على قلبى

وفى أبياته الثلاثة الأخيرة معان رقيقة مستحدثة فى الغزل . وظنى إنه لم يسبق إليها .

(١) غزيلا تصغير غزال استعارة لحسناء .
(٢) السرب جماعة الغزلان .
(٣) الصبا بكسر الصاد الفتاء وبفتحها ريح مهبها من الشرق .
(٤) معذب اسم فاعل وهو فاعل اتقى .

ومن شعره فى الرثاء ما قاله فى رثاء جده الحسين شهيد كربلاء ،
وهو آخر ما نظمه ، وكان بمشهد الحسين فى كربلاء حين قاله :

كربلا لا زلت كربا وبلا
ما لقى عندك آل المصطفى[1]

كم على تربك لما صرعوا
من دم سال ومن دمع جرى

كم حصان الذيل يروى دمعها
خدها عند قتيل بالظما[2]

تمسح الترب على إعجالها
عن طلى نحر رميل بالدما[3]

وضيوف لفلاة قفرة
نزلوا فيها على غير قرى[4]

لم يذوقوا الماء حتى اجتمعوا
بجدا السيف على ورد الردى[5]

تكسف الشمس شموسا منهم
لا تدانيها ضياء وعلا

---

(١) كربلا مقصود كربلاء ، مالقى استفهام تعجبي .
(٢) حصان الذيل كناية عن العفة .
(٣) الطلى الأعناق رميل بالدما ملطخ بها .
(٤) القري طعام الضيف .
(٥) الجدا المطر وإضافته للسيف من اضافة المشبه به الى المشبه .

وتنوش الوحوش من أجسادهم
أرجل السبق وأيمان الندى[1]

ووجوها كالمصابيح فمن
قمر غاب ونجم قد هوى

غيرتهن الليالي وغدا
جائر الحكم عليهن البلا[2]

يا رسول الله لو عاينتهم
وهم ما بين قتل وسبا

من رميض يمنع الظل ومن
عاطش يسقى أنابيب القنا[3]

ومسوق عاثر يسعى به
خلف محمول على غير وطا

متعب يشكو أذى السير على
نقب المنسم مجزول المطا[4]

لرأت عيناك منهم منظراً
للحشا شجواً وللعين قذى

ليس هذا لرسول الله يا
أمة الطغيان والبغي جزا

---

(١) تنوش تتناول .

(٢) البلا فاعل غدا .

(٣) رميض متحرق القدمين من الحر . القنا الرماح .

(٤) نقب المنسم أصابة الحفل مجزول المطا مجروح الظهر .

غارس لم يأل فى الفرس لهم
فأذاقوا أهله مر الجنى[1]

جزروا جزر الأضاحي نسله
ثم ساقوا أهله سوق الإما[2]

معجلات لا يوارين ضحى
سنن الأوجه أو بيض الطلى[3]

هاتفات برسول الله فى
بهر السعى وعثرات الخطى[4]

أدرك الكفر بهم ثاراته
وأديل الغي منهم فاشتفى[5]

يا قتيل قوض الدهر به
عمدا لدين وأعلام الهدى

قتلوه بعد علم منهم
أنه خامس أصحاب الكسا[6]

غسلوه بدم الطعن وما
كفنوه غير بوغاء الثرى[7]

---

(١) لم يأل لم يقصر .
(٢) الاما مقصور الاماء .
(٣) سنن الأوجه صورها ، والطلى الأعناق .
(٤) البهر انقطاع النفس .
(٥) أديل الغي منهم جعلت له الكرة عليهم .
(٦) يعني خامس خمسة جمعهم المصطفى فى كسائه على ماهو معلوم .
(٧) بوغاء الثري رخو التراب .

مرهقا يدعو ولا غوث له

بأب بر وجد مصطفى

وبأم رفع الله لهـا

علما ما بين نسوان الورى

أى جد وأب يدعوهما

جد يا جد أغثنى يا أبا

كيف ام يستعجل الله لهم

بانقلاب الأرض أو رجم السما

إلى أن قال :

لو رسول الله يحيا بعده قعد اليوم عليه للعزا
معشر منهم رسول الله والـ كاشف الكرب إذا الكرب عرا
صهره الباذل عنه نفسه وحسام الله فى يوم الوغى[1]

ثم مضى فى ذكرهم إلى أن قال :

يا جبال المجد عزا وعلى وبدور الأرض نورا وسنا
جعل الله الذى نابكم سبب الوجد طويلا والبكا
لا أرى حزنكم ينسى ولا رزءكم يسلى وإن طال المدى

وهو متأثر فيها بها شمبان الكميت بن زيد الأسدى إلى حد بعيد :

---

(١) صهره: بدل من الكاشف ، يعنى على بن أبى طالب.

الشريف المرتضى

نسبه :

هو على بن أبى أحمد الحسين بن موسى الأبرش بن محمد الأعرج بن أبى سبحة موسى بن إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الإمام الحسين بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب : ويعرف بالشريف المرتضى . وهو أخو الشريف الرضى .

حياته :

ولد ببغداد فى شهر رجب من سنة - ٣٥٥ هـ . ٩٦٥ م - ونشأ بها هو وأخوه الرضى فى كنف أبيهما أبى أحمد ، وكان نقيب الطالبيين ببغداد وعالمهم وزعيمهم . وكان يجمع إلى رياسة الدين زعامة الدنيا . لعلو همته . وعظيم هيبته . حتى إن عضد الدولة البويهى كان يخشاه لأنه كان منحازا لابن عمه بختيار بن معز الدولة . فحين قدم العراق قبض عليه فى صفر من سنة ٣٦٩ هـ . واعتقله فى قلعة بشيراز . فمكث بها إلى أن مات عضد الدولة سنة ٣٧٣ هـ فلما تولى شرف الدولة بن عضد الدولة أطلقه واستقدمه معه إلى بغداد . وأعاده إليه نقابة الطالبيين . وقلده قضاء القضاة وولاية الحج والمظالم .

ولكنه لم ينظر فى قضاء القضاء لامتناع القادربالله العباسى عن الإذن له به . فورث عنه ابناه المرتضى والرضى ما كان له من علو المنزلة . وبعد الهمة .

وكان أبو أحمد من الشيعة الإمامية فنشأ ابنه المرتضى على مذهبه . ودرس هو وأخوه الرضى على كثير من علماء عصره فى مختلف العلوم والفنون . وممن أخذا عليه الشعر والأدب أبو نصر عبد العزيز بن عمر المعروف بابن نباته السعدى . وأبو عبد الله محمد بن عمر أن المرزبانى . وممن أخذا عنه الفقه والأصول محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد ، وهو الذى انتهت إليه رئاسة الإمامية فى عصره فى الفقة والكلام والحديث .

وكانت دراسة المرتضى أوسع من دراسة الرضى ، لأن نزعه المرتضى كانت علمية أكثر منها أدبية . ولهذا غلبت فيه نزعة العلم على نزعة الشعر . وغلبت فى الرضى نزعة الشعر على نزعة العلم . فكان المرتضى عالما واسع المعرفة ، غزير الاطلاع . ملما بفنون . الثقافة الإسلامية التى كانت مزدهرة فى عصره . حتى كان فقيه الشيعة الإمامية ومتكلمها بعد وفاة شيخه المفيد . وكان إماما فى علم الكلام والفقه والأصول والأدب واللغة والتفسير والتاريخ والتراجم وما إليها من علوم عصره وفنونه .

وبهذا اختلفت نزعة الأخوين فكان الرضى طموحا متطلبا للرئاسة حتى إن كان يمنى نفسه بالخلافة . أما المرتضى فكان مشغوفا بالعلم منصرفا إليه بين دراسة وتدريس . حتى إنه اتخذ من

داره وكانت واسعة، مدرسة لتدريس الفقه والكلام والتفسير واللغة والشعر والعلوم الأخرى كعلم الفلك والحساب وغيرها. وكان يسميها دار العلم ويتخذ له فيها مجلسا للمناظرات. وكان الطلاب يقصدون فيها على اختلاف مللهم ومذاهبهم. وممن أخذ عليه بعض اليهود إذ أخذ عليه علم النجوم أى علم الفلك(١) وكان يقتنى لمدرسته مكتبة واسعة بلغت مجلداتها فيما يقال ثمانين ألف مجلد. وقومت بثلاثين ألف دينار.

وكذلك كان مجلس مناظرته يتسع للعلماء على اختلاف مللهم ومذاهبهم. مما يدل على مرونته فى الدين. وعلى واسع علمه وثقافته، وقد وصف ابن الجوزى مجلسه فقال: إنه كان يناظر عنده فى كل المذاهب. وقال محمد بن يحيي بن مبارك الحمصى فى سماحته الدينية والعلمية: مارأيت رجلا من العامة إلا وهو يثنى عليه. وما رأيت من يبخسه حقه. وما رأيت إلا من يزعم أنه من طائفته. وهذا لا يمنع عندى أنه كان شيعيا إماميا. لأنه لا يدل إلا على أنه كان متسامحا فى مذهبه. ولم يكن متزمتا فيه كمن يتزمت فى مذهبه من الفرق الإسلامية.

وقد سئل عنه أبو العلاء المعرى بعد أن حضر مجلسه وكان قد قصد إليه من المعرة فقال:

ياسائلى عنه لما جئت أسأله　　فإنه الرجل العارى عن العار
لو جئته لرأيت الناس فى رجل　　والدهر فى ساعة والأرض فى دار

---

(١) ستأتى قصته فى ذلك.

ويقال إن جرت مناظرة فى مجلس المرتضى بينه وبين أبى العلاء فى مسائل فلسفية قال له فى ختامها : ألا كل ملحد ملهد أى ظالم . لأنه يقال : ألحد الرجل إذا عدل عن الدين وألهد إذا ظلم . وقد قال الله تعالى : (إن الشرك لظلم عظيم) ثم منعه من العودة إلى مجلسه . وطعن بعضهم فى صحة هذا بأن أبا العلاء لم يتهم بالإلحاد إلا بعد عودته من بغداد إلى المعرة ولزومه منزله فيها .

ويقال أيضا : إن أبا العلاء كان يتعصب للمتنبي وكان المرتضى يتعصب عليه . فتنقصه يوما فى مجلسه وجعل يتتبع عيوبه . فقال أبو العلاء : لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلا قوله * لك يامنازل فى القلوب منازل* لكفاه فضلا . فغضب المرتضى وأمر فسحب برجله وأخرج من مجلسه . ثم قال لمن بحضرته : أتدرون ما أراد بذكر هذه القصيدة ؟ فقيل له : أنت أعرف . فقال أراد قوله فيها :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

وبعضهم طعن فى صحة هذه القصة أيضا . لأن أبا العلاء رثى والد المرتضى قبيل مفارقته بغداد بقصيدة أثنى فيها على المرتضى والرضى فقال :

أبقيت فينا كوكبين سناهما فى الصبح والظلماء ليس بخاف
متأنقين وفى المكارم أرتعا متألقين بسؤدد وعفاف
ساوى الرضى المرتضى وتقاسما
خطط العلا بتناصف وتصاف

فلو جرى ذلك من المرتضى له لما أثنى عليه هذا الثناء .

وكان المرتضى منزلته لدى ملوك بنى العباس كأبيه وأخيه مع مخالفتهم لهم فى المذهب . لأن هؤلاء الملوك كانوا سنيين . فلما مات أخوه الرضى ولاه القادر بالله نقابة الطالبيين وأمر الحج والمظالم ، وقد عاصر المرتضى أربعة منهم ، وكان شديد الاتصال بهم . وصاحب مشورتهم . وسفيرهم فى أكثر ملماتهم إلى الملوك والوزراء وغيرهم . ومن شعره كثير فى مدائحهم . كما كان لأخيه الرضى أيضا . ولعلهما كانا يقصدان بهذا رفع شأنهم إذهان على المتغلبين عليهم من ملوك بنى بويه وغيرهم . وهم أبناء عمومتهم . وفى هوانهم هوان لهم .

وكانت وفاة المرتضى لخمس بقين من شهر ربيع الأول من سنة ٤٣٦ هـ : ١٠٤٤ م - ونقل عنه أنه قال عند وفاته :

لإن كان حظى عاقنى عن سعادتى

فإن رجائى واثق بحليم

وإن كنت فى زاد التقية والتقى   فقيرا فقد أمسيت ضيف كريم

عقيدته وأخلاقه :

كان المرتضى يأخذ بمذهب الشيعة الإمامية . وهم ينقسمون من الناحية الفقهية إلى قسمين :

١ - أخباريين يمنعون الاجتهاد فى الأحكام الشرعية ، ويعملون بالأخبار الواردة عندهم عن النبى صلى الله عليه وسلم وأهل بيته . ويرون أن ما فيها قطعى السند أو موثوق بصدوره . فلا حاجة إلى

البحث فى سندها ولا إلى تقسيم أحاديثها إلى الصحيح والحسن وغيرهما ، لأنها كلها صحيحة ، ولا حاجة بعد هـذا إلى ما يسمى بعلم أصول الفقه .

٢ - وأصوليين يقولون بالاجتهاد ، ويأخذون بالأصول الأربعة فى استنباط الأحكام الشرعية ، وهى الكتاب والسنة والإجماع ودليل العقل ، ورأيهم فى أخبارهم أنها غير قطعية السند ، وأن أحاديثها مختلفة المراتب .

والمرتضى من القسم الثانى ، فكان فى جميع كتبه ورسائله أصوليا بحتا ، ومجتهدا صرفا ، قليل التعليق بالأخبار كثير الاستدلال بالأدلة العقلية الموافقة للكتاب والسنة المتواترة ، لأنه كان لا يعول على أخبار الآحاد .

والشيعة الإمامية توافق المعتزلة فى كثير من مذاهبهم الكلامية ، كالقول بنفى الصفات عن الله تعالى وأنها عين ذاته ، والقول بالحسن والقبح العقليين ؛ وتخالفهم فى مذهبها فى الإمامة وأنها بالنص الجلى وفى قولهم بخلق القرآن ونحو ذلك .

وكان المرتضى يقول بقول جماعته فى ذلك ؛ ولهذا يتهمه بعض أهل بعض السنة بأنه كان من أهل الاعتزال ، ومثل هذا لا قيمة له الآن فى عصر انتشرت فيه حرية الرأى على جمود أصحاب التقليد .

أما أخلاقه فكان فيها على ما سبق فى الكلام على حياته ، ولكن بعضهم يرميه بأنه كان بخيلا حريصا على الدنيا بخلاف أخيه الرضى ويستدل على هذا بقصتهما عند الوزير محمد بن خلف ، وقد ذكرت

فى الكلام على الرضى وبعضهم يطعن فيها بأنها مضطربة ، لأنها فى هذه الرواية كانت عند هذا الوزير ، وفى رواية أخرى أنه كان الوزير أبا محمد المهلبى على أنه لا يقدح فى المرتضى أن يسأله رفع ضريبة عنه قدرها عشرون درهما إذا كان يراها ظلما ، وإنما يقدح فيه أن يسأله صلة على عادة الشعراء المتكسبين بشعرهم ، ولا يصح أن يرمى بالبخل من فتح داره لطلاب العلم على كثرتهم ، وأجرى عليهم من الجرايات ما يفى بحاجتهم . ولا يصح أن يرمى بالحرص على على الدنيا ومن نوادره فى الكرم أن أبا الحسن الفالى باعه نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد بستين دينارا ـ لا عشرين درهما ـ فلما تصفحها وجد فيها أبياتا بخط أبى الحسن :

أنست بها عشرين حولا وبعتها　　لقد طال وجدى بعدها وحنينى
وما كان ظنى أننى سأبيعها　　ولو خلدتنى فى السجون ديونى
ولكن لضعف وافتقار وصبية　　صغار عليهم تستهل شؤونى [1]
فقلت ولم أملك سوابق عبرة　　مقالة مكوى الفؤاد حزين
وقد تخرج الحاجات يا أم مالك　　كرائم من رب بهن ضنين [2]

فرد النسخة إليه وترك له الدنانير .

وقد افتخر المرتضى بالكرم فى كثير من شعره كما قال :

---

(١) شؤونى : دموعى .

(٢) هذا البيت لأعرابى باع جملا لحمزة بن عبد الله بن الزبيد بخمسين دينارا ثم جعل ينظر إليه ويقول ذلك ، فوهبه له والدنانير .

دعى منظرى إن لم أكن لك رائعا ولا تنظرى إلا إلى حسن مخبرى
فإنى وخير القول ما كان صادقا لدى الفخر سباق إلى كل مفخر
وأعلم أن الدهر يعبث صرفه بما شاء من مال البخيل المقتر
عذلت على تبذير مالى وهل ترى يجمع إلا للجؤور المبـذر
أفرقه من قبل أن حال دونه رحيلى عنه بالحمام المقدر

وكان كرمه بذلك شاملا لكل من يقصده ولو لم يكن من أهل دينه . كما فعل مع يهودى أفلس عندما أصاب الناس قحط شديد . فاحتال لتحصيل قوت يحفظ نفسه فحضر يوما مجلس المرتضى فاستأذنه أن يقرأ عليه شيئا من علم النجوم . فأذن له وأمر له بجائزة تجرى عليه كل يوم ، فقرأ عليه برهة ثم أسلم على يده .

وهذا كما يدل على كرمه يدل على سماحته فى دينه . ويدل عليها أيضا ما كان له من صلة وثيقة بأبى إسحاق الصابى فلم يشبها شائبة من اختلافهما فى الدين إلى أن أدركت أبا إسحاق الوفاة . فرثاه فى شعره رثاء حسنا كما رثاه أخوه الرضى . وفى رثائه يقول :

ما كان يومك يا أبا إسحاق إلا وداعى المنى وفراقى
وأشد ما كان الفراق على الفتى ما كان موصولا بغير تلاق
ولقد أتانى من مصابك طارق لكنه ما كان كالطراق

على تفخيم لفظ الشعر وتجويد معناه ليعود إلى أسلوبه الذى كان عليه فى عهد الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، وإن كان على نحو آخر يلائم ما ظهر من الثقافات بين العرب بعد اختلاطهم بغيرهم من الأمم ، ونهضة الإسلام بهم فى دينهم ودنياهم .

مختارات من شعره :

قال فى الغزل :

ضن عنى بالنزر إذ أنا يقـ ظان وأعطى كثيره فى المنام
والتقينا كما اشتهينا ولا عيـ ـب سوى أن ذاك فى الأحلام
وإذا كانت الملاقاة ليلا فالليالى خير من الأيام

وقال فيه أيضا :

ياخليلى من ذؤابة قيس فى التصابى رياضة الأخلاق
عللانى بذكرهم تطربانى واسقيانى دمعى بكأس دهاق
وخذ النوم من جفونى فإنى قد خلعت الكرى على العشاق

وللبيت الأخير قصة له مع ابن المطرز الشاعر . وكان جالسا فى علية له فأخرج رأسه من نافذة لها فرأى ابن المطرز يجر نعالا بالية وهى تثير الغبار ، فأمر به فأحضر وقال له : أنشدنى أبياتك التى تقول فيها :

سرى مغرما بالعيش ينتجع الركبا
بسائل عن بدر الدجى الشرق والغربا
على عذبات الجزع من ماء تغلب
غزال يرى ماء القلوب له شربا
إذا لم تبلغنى إليكم ركائبى
فلا وردت ماء ولا رعت العشبا

فلما أنشده إياها وانتهى إلى هذا البيت أشار المرتضى إلى نعله

البالية وقال : أهذه كانت من ركائبك ؟ فأطرق ابن المطرز ثم قال : لما عادت هبات سيدنا الشريف إلى مثل قوله :

وخذ النوم من جفونى فإنى
قد خلعت الكرى على العشاق

عادت ركائبى إلى مثل ما ترى . لأنك خلعت مالا تملكه على من لا يقبله ، وهى قصيدة طويلة على هذا النحو من فخامة الألفاظ وجزالتها . وفى آخرها يقول فيما بينهما من الاختلاف فى العنصر والدين :

إن لم تكن من عنصرى فلأنت بال
آداب من أهلى وبالأخلاق

ومودة بين الرجال تضمهم
وتلفهم خير من الأعراق

من ذا نضا عنا شعار جمالنا
ورمى هلال سمائنا بمحاق

فلئن خرست عن البيان فطالما
حكمت أنى شئت بالإنطاق

ولئن تحملت التراب فطالما
قد كنت محمولا على الأعناق

فليمض بعدك من أحب فقد مضى
منك الحمام ببغيتى ووفاقى

مالى انتفاع بعد فقدك صاحبا
حلو المذاقة فى الورى بمذاق
نسجت عليك رياض كل بلاغة
وسقاك منهـا ما تشـــاء الساقى
وعصت على كل الرجال فقدتهـا
لرضاك بالأرسان والأرباق [١]
طلبوا مداك ففتهم وسبقتهم
ركضا ولم تسمح لهم بلحاق
والآن بعد اليأس منهـا أيقنوا
أن البلاغة فى يد الرزاق
وليسق قبرك كل منخرق الـكلى
مرعاد كل عشـية مبراق
وإذا جفا الترب السحاب فعنده
ما اخترت من سح ومن إطباق [٢]
لم يفن دهر من نأى وله بنـا
كلم على مر الزمان بواق
وإذا مضيت وفيك فضل باهر
فيمن نسلت فأنت حى باق

---

(١) الأرسان : جمع رسن وهو القيد والأرباق جمع ربقة وهي الحلقة .
(٢) إطباق السحاب عمومه وشموله .

منزلته الشعرية :

للمرتضى ديوان شعر يحتوى على عشرين ألف بيت ، وهو معدود فى الرعيل الأول من الشعراء المجيدين ؛ ولكن بعضهم يفضل عليه أخاه الرضى فى الشعر ، ويفضله عليه فى العلم ، ويقول فى ذلك: إنه اشتهر عن بعض العظماء أن المرتضى أشعر أهل زمانه لو لم يكن الرضى أخاه ، وأن الرضى أعلم أهل زمانه لو لم يكن المرتضى أخاه .

وبهذا يكون المرتضى كأخيه الرضى من مدرسة أبى تمام التى عملت فاستحسن جوابه وأمر له بجائزة فأعطوه إياها .

وقال فى الغزل أيضا :

بينى وبين عواذلى فى الحب أطراف الرماح
أنا خارجى فى الهوى لا حكم إلا للملاح

وما أظرف قوله ـ أنا خارجي فى الهوى ـ والإمامية من غلاة الشيعة : وهم والخوارج على طرفى نقيض .

ومما يذكر فى الاستدلال على سرعة بديهته فى الشعر أنه جرى شجار بينه وبين أبى العلاء المعرى فى قطع يد السارق ، فقال أبو العلاء :

يد بخمس مئين عسجد وديت
ما بالها قطعت فى ربع دينار
تناقض مالنا إلا السكوت له
وأن نعوذ بمولانا من النار

فأجابه المرتضى على الفور :

عز الأمانة أغلاها وأرخصها
ذل الخيانة فافهم حكمة البارى

ثم يقال بعد هذا إن البيتين من قصيدة لأبى العلاء فى مدح المرتضى . وفيها يقول البيتين السابقين :

يا سائلى عنه لما جئت أسأله
ألا هو الرجل العارى عن العار
لو جئته لرأيت الناس فى رجل
والدهر فى ساعة والأرض فى دار

فكيف يكون فى شجار معه فى قطع يد السارق وهو يمدحه بذلك ، وكيف يكون البيتان من هذه القصيدة ولا علاقة لهما بها ، ولكنه أبو العلاء الذى حمل عليه من الشعر فى الطعن فى دينه ما حمل .

وقال فى رثاء جده الحسين بن على بن أبى طالب :

قف بالديار المقفرات لعبت بها أيدى الشتات
فكأنهن هشائم بمرور هوج العاصفات[1]
فاذا سألت فليس سا ئل غير صم صامتات
عج بالمطايا الناحلا ت على الرسوم الماحلات

(١) هشائم جمع هشيمة وهي الشجرة اليابسة ، وهوج العاصفات الرياح الشديدة .

واسأل عن القتلى الألى   طرحوا على شط الفرات
شعث لهم جمم عصيـ   ن على أكف الماشطات
وعهودهن بعيـدة   بدهان أمد داهنات

إلى أن يقول :

يا آل أحمد والذيـ   ن غدا بحبهم نجاتى
ومنيتى فى نصرهم   أشهى إلى من الحياة
حتى متى أنتم على   صهوات حدب شامصات[1]
وحقوقكم دون البريـ   ة فى أكف عاصبات

ثم يقول :

قل للألى جادوا وقد   ضلوا الطريق عن الهداة
نامت عيونكم ولـ   كن عن عيون ساهرات
وظننتم طول المدى   يمحو القلوب عن الترات[2]
هيهات إن الضغن تو   قده الليالى بالغداة

ثم يختمها بقوله :

يا صاحبى فى يوم عا   شوراء والحدب المواتى
لا تسقنى بالله فيـ   ه سوى دموع الباكيات

---

(١) شامصات نافراته .
(٢) الترات جمع ترة وهي الثأر .

وتداومن حزن بقلـ ـبك بالمراثى المحزنات

لا عطلت تلك الحفا ئر من سلام أوصلاة

فلقد طوين شموسنا وبدورنا فى المشكلات

وهى نفحة من نفحات الهاشميات للكميت ، وإن دلت على شىء فإنها تدل على أن نفوس المرتضى وغيره من العلويين وشيعتهم كانت تنطوى على ضغن شديد للعباسيين ومن إليهم ، مع أن العباسيين كانوا فى حالة يرثى لها ، وكان اعتزالهم للملك خيراً لهم مما كانوا يلقون فيه من مهانات ، والآخرة خير وأبقى من مثل هذه الدنيا .

أبو العلاء المعرى

نسبه ومولده :

هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعرى التنوخى ، ينتسب إلى تنوخ من بطولة قضاعة التى نزلت بالشام قبل الإسلام .

وكان مولده بمعرة النعمان سنة ٣٦٣ ﻫ - ٩٧٣ م

نشأته وسيرته :

نشأ أبو العلاء ببلده فى بيت علم وأدب ، فدرس على أبيه علوم اللسان ثم رحل إلى حلب ليسمع اللغـة والأدب على علمائها الذين شهدوا ابن خالويه ، ثم رحل إلى أنطاكية . وكان فيها مكتبة عربية نفيسة . فحفظ منها كثيرا . ثم سافر إلى طرابلس الشام . ومر فى طريقه إليها باللاذقية . ونزل بدير فيها . فلقى فيها راهباً درس الفلسفة وعلوم الأوائل . فأخذها عنه . ثم وصل إلى طرابلس . وكان بها مكتبة كبيرة لآل عمار الحاكمين بها . فانتفع بها كثيرا . ثم عاد إلى بلده بعد أن بلغ العشرين وأتم الدرس والتحصيل .

كل هذا وهو كفيف قد كف بصره وهو فى الثالثة من عمره . وقد فقد أباه فى الرابعة عشرة من عمره . ممـا يدل على قوة نفسه وبعد همته . وقد قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة . ولم يتكسب

به كما تكسب به غيره من الشعراء . لما كان عليه من علو النفس والأنفة من الكذب . وكان لنشأته فى ذلك البيت الكريم أثره فى ذلك .

ولما عاد إلى بلده وهو فى سن العشرين أقام بها مدة من الزمن . ثم رأى أن يرحل رحلة أهم من رحلاته السابقة . فقصد بغداد قاعدة الدولة . وموطن الأدب والفلسفة . فأقبل عليه أهلها . واشترك فى أنديتها العلمية والأدبية والفلسفية . واتصل بأديبها الشريف المرتضى صاحب الأمالى المشهورة . وبأخيه الشريف الرضى الشاعر المعروف . فقامت له فيها شهرة نفسها عليه علماؤها وأدباؤها . ثم انقطع ما بينه وبين المرتضى بسبب تعصبه على المتنبي . وتعصب أبى العلاء له . فترك بغداد إلى بلده آسفا . ولزم بيته فيها إلى آخر حياته . مؤثرا العزلة على الخلطة . وسمى نفسه رهين المحبسين - العمى والمنزل - ولكن علمه وأدبه دفعا إليه طلاب العلم والأدب . فوفد عليه الطلاب والأدباء والرواة والمتفلسفة . واشتغل معهم بالتدريس والتأليف وقرض الشعر . إلى أن توفى سنة ٤٤٩ هـ : ١٠٥٧ م .

منزلته فى الشعر والنثر :

أبو العلاء من مدرسة أبى تمام فى إيثاره لفخامة اللفظ ودقة المعنى . ولكنه يمتاز على شعراء هذه المدرسة بتأديته لرسالة الشعر فى عصره . إذ فتح فيه فتحا جديدا بالكلام على الطبائع . ووسائل الاجتماع . وعادات النـاس وأخلاقهم . ونظام الدول والقوانين والشرائع

والأديان . ولم يعرف هذا لشاعر عربى قبله . وبه يستحق الزعامة على شعراء هذه المدرسة .

ومع هذا شارك شعراء عصره فيما انفردوا به . ولم يقصر عنهم فيما تناولوه من أبواب الشعر من مديح ورثاء وما إليهما . وشعره فى المدائح والمراثى وبقية أغراض الشعر أرق من شعره فى النقد والفلسفة . فان ما قاله من هذا الشعر كان بعد رجوعه من بغداد وحبسه نفسه فى بيته . فالتزم فى سيرته وشعره ونثره أشياء لم يلتزمها من قبل . وذلك حين راض نفسه على تكلف المشقة واحتمال المكروه . وقد ضمن شعره من هذا القبيل ديوانه الذى سماه لزوم مالا يلزم . إذا التزم فى القافية الشعرية أن تكون على حرفين . مع أنه لو أسقط أحدهما لما كان متجاوزا قواعد القافية . وقد سبق كثير صاحب عزة إلى مثل هذا فى تائيته التى مطلعها :

خليلى هـذا ربع عزة فاعقلا
قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت(١)

فاضطر ذلك الصنع أبا العلاء إلى المبالغة فى استعمال الغريب . ليقوم له بما يحتاج من القافيـة . حتى حبس أفكاره . وأنهك معانيه . فجاءت ألفاظه غريبة . وأساليبه معقدة .

وقد يكون مع ذلك السبب الذى ألجأه إلى سلوك ذلك الأسلوب فى شعره من هذا النوع سبب آخر كان له أثره فى الفلاسفة قبله . إذ تعمدوا تعمية نثرهم فى الفلسفة . حتى لا يفهمه من يؤلب النـاس

(١) قلوصيكما تثنية قلوص وهي الناقة الشابة .

عليهم من الفقهاء ومن إليهم . فلجأ أبو العلاء مثلهم إلى تعمية شعره بتلك الالتزامات حينما سلك به طريق الفلسفة . واستخدم الشعر فيها كما استخدم الناس فيها قبله . ويقتضينا الانصاف بعد هذا ألا نحسب ذلك عليه . لأنه أراده عن عمد ولهذا الغرض . واعتذر فى مقدمة ديوانه مما عسى أن يقع فيه مما لا يوافق أساليب الشعراء .

وله ديوان آخر سماه سقط الزند ، ضمنه شعره قبل أن يصير بنفسه هذا المصير ، ويشتمل على شعره فى المدح والفخر والوصف والرثاء وغير هذا من أغراض الشعر .

أما نثره فقد كتب بعضه أيضا قبل عزلته ، وكتب بعضه الآخر بعدها وكان حاله فيهما كحال شعره أيضا تعمية وإيثاراً للفظ الغريب والسجع الثقيل ليقيم من كل هذا أسوارا تحجب أغراضه عمن ليس من أهلها وأهم ما كتبه فى النثر : رسالة الغفران ، وقد كتبها بعد عزلته ويقال إن دانتى الكاتب الإيطالى تأثر بها فى جحيمه(١) وتتلخص فى أن شخصا خياليا سماه على بن القارح . قام من قبره يوم البعث . فلبث فى الموقف طويلا حتى أعياه الحر والظمأ . ففكر فى أن يخدع سدنة الجنة بما كان يخدع به الناس فى الدنيا من الشعر . فأنشأ القصائد فى مدح رضوان فلم يفهم منها شيئا لأنه لا يتكلم العربية . ومضى فى هذا النوع من الحيلة والكلام قبل دخوله الجنة وبعده إلى نهاية رسالته . ولا شك أن هذا النوع من الخيال الذى فيه خداع

(١) رواية له سماها الجحيم على نسق رسالة الغفران .

سدنة الجنة وما إلى ذلك لم يكن مألوفا إلى عصر أبى العلاء فكان وقعه شديدا على بعض الناس .

وإذا أردنا أن نرجع هذا النحو الجديد الذى نحاه أبو العلاء فى شعره ونثره إلى أسبابه وعوامله وجدناه يرجع إلى هذه الأسباب :

١ ـ تربيته التى ضم فيها إلى درس اللغة والأدب علوم الأوائل وشرائعهم ودياناتهم . فأمكنه أن يخوض بشعره فى أمرها ويسلك به مسلك النقد الذى اكتسبه من دراسة الفلسفة والمنطق .

٢ ـ فساد عصره دينا وسياسة وأخلاقا وعادات . فقد أدرك اضمحلال الدولة العباسية . وانقسام المسلمين انقساما شنيعا لم يبق لهم معه من الإسلام إلا اسمه ورسمه فهيأ له هذا مادة ذلك الشعر الذى شرح فيه ذلك الفساد الدينى والخلقى والسياسى .

٣ ـ ما لقيه من عنت الناس وسوء عشرتهم . ومن توالى المحن عليه من فقد بصره فى صغره وموت أبيه فى شبيبته وأشباه ذلك .

عقيدته الدينية :

ومثل هذا لم يكن من المنتظر بعده إلا أن يتهم أبو العلاء فى عقيدته ؛ لأنه هاجم زمانه فى عاداتهم وأخلاقهم ونفاقهم فى دينهم بما جاء من ذلك فى شعره ونثره وجرى فيه على نحو من الخيال والتفكير لم يكن مألوفا قبله . وضم إلى ذلك أنه بعد عزلته حرم على نفسه لحم الحيوان وما يخرج منه . واكتفى بالنبات والفاكهة

والدبس(١) وعاش عزبا إلى أن مات. وأوصى أن يكتب على قبره:

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

واجتناب أكل الحيوان وما يخرج منه عقيدة دينية يزاها براهمة الهند فرمي أبو العلاء من أجل ذلك كله بالإلحاد. وقد يكون أبو العلاء ملحدا في نفسه. وهذا أمر بينه وبين الله. ولكن ذلك كله لا يؤخذ منه إلحاده لأنه ما كان منه في رسالة الغفران من نحو ما سبق ليس إلا خيالا ودعابة أديب. ومثل هذا يؤخذ به الشخص في نفسه لا في عقيدته فيكون به آثما مثلا لا ملحدا. وكذلك عزلته عن الناس. وخروجه على جماعتهم. وطعنه في دينهم وأخلاقهم وعاداتهم. لأنهم كانوا يستحقون منه لما صاروا إليه من الفساد الديني والخلقي الذى انتشر فيهم. وجعلهم مسلمين اسما لا فعلا.

وكذلك ما كان من تحريمه أكل الحيوان على نفسه. لأنه كان يرجع إلى زهد أو نحوه. ولم يكن يقصد به خروجا على دينه. أو تأثراً بعقيدة هندية أو غيرها. ومثل هذا إذا أخذ عليه فانه لا يصل إلى الطعن في عقيدته. لأنه أقرب إلى أن يكون تشدداً لا انحلالا.

وكذلك ما ينسب إليه من أشعار كثيرة لو صحت تثبت ما يرمى به من الإلحاد. كهذين البيتين:

دين وكفر وأنباء تقص وقرآ
ن ينص وتوراة وإنجيل

(١) هو ما يعقد بالنار من عصير العنب والخرنوب ونحوهما.

في كل جيـل أباطيل ملفقة

فهـل تفرد يوما بالهدى جيل

لأن مثل هذا الشعر مدسوس عليه في شعره نكاية به من حساده ، وممن هاجمهم في نفاقهم الديني وفسادهم الخلقي . وكان من السهل دس الشعر على الشاعر في هذا العصر الذي لم يكن فيه مطابع ولا غيرها مما يتقي به الآن مثل هذا الدس لأنه لو صح هذا عنه لنفذ فيه حكم الردة كما نفذ في كل زنديق إلى عصره . وكذلك بعد عصره إلى عصرنا الحديث . إذ أصبح الإلحاد فيه مباحا . ومع هذا يجد من يجاهر به من مقاومة الناس ما يضطر معه أن يخفيه . فكيف يجاهر أبو العلاء بمثل ذلك في عصره ولا يخشى أهله ، على أنه يكفي في عدم صحته أنه عاش بين تلاميذ من خيار المسلمين . ثم مات فرثاه على قبره نحو سبعين شاعرا يثنون عليه . وينوهون بعلمه وأدبه وفضله .

مختارات من شعره :

قال في الفخر من ديوانه : سقط الزند :

الا في سبيل المجـد ما أنا فاعل

عفاف وإقدام وحزم ونائل(١)

أعندي وقد مارست كل خفيـة

يصـدق واش أو يخيب سائل

تعد ذنوبي عند قوم كثيرة

ولا ذنب لي إلا العلا والفضائل

---

(١) نائل عطاء .

كأنى إذا طلت الزمان وأهله
رجعت وعندى للأنام طوائل[1]

وقد سار ذكرى فى البلاد فمن لهم
بإخفاء شمس ضوؤها متكامل

يهم الليالى بعض ما أنا مضمر
ويثقل رضوى دون ما أنا حامل[2]

وإنى وإن كنت الأخير زمانه
لآت بما لم تستطعه الأوائل

وإنى جواد لم يحل لجامه
ونصل يمان أغفلته الصواقل[3]

فإن كان فى لبس الفتى شرف له
فما السيف إلا غمده والحمائل

ولى منطق لم يرض لى كنه منزل
على أننى بين السماكين نازل[4]

لدى موطن يشتاقه كل سيد
ويقصر عن إدراكه المتناول

---

(١) طلت طاولت وغالبت ، طوائل جمع طائل وهو الفضل .

(٢) رضوى : جبل .

(٣) النصل : السيف ، والصواقل جمع صاقل من صقل السيف جلاه وملسه.
يعنى أنه كريم على أصله .

(٤) السماكان نجمان .

ولما رايت الجهل فى الناس فاشيا
تجاهلت حتى ظن أنى جاهل
فوا عجبا كم يدعى الفضل ناقص
ووا أسفا كم يظهر النقص فاضل
وكيف تنام الطير فى وكناتها
وقد نصبت للفرقدين الحبائل[1]
إذا وصف الطائى بالبخل مادر
وعير قسا بالفهاهة باقل[2]
وقال السهى للشمس أنت ضئيلة
وقال الدجى للصبح لونك حائل[3]
وطاولت الأرض السماء سفاهة
وفاخرت الشهب الحصى والجنادل
فيا موت زر إن الحياة ذميمة
ويا نفس جدى إن دهرك هازل

وهذا يدل على علو نفس لانظير له فى عصره ، وعلى شكوى مريرة من هذا العصر وقال فى رثاء وهو غاية ما وصل إليه الشعر العربى فى هذا الباب :

غير مجد فى ملتى واعتقادى   نوح باك ولا ترنم شادى

(١) الفرقدان : نجمان .
(٢) الطائى : حاتم .
(٣) السهى : كوكب خفي من بنات نعش .

وشبيه صوت النعي إذا قيـ ـس بصوت البشير في كل ناد
صاح هذي قبورنا تملأ الرحـ ـب فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهـ ـد هوان الآباء والأجداد
سر إن اسطعت في الهواء رويدا لا اختيالا على رفات العباد
رب لحد قد صار لحدا مرارا ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين في طويل الأزمان والآباد
تعب كلها الحياة فما أعـ ـجب إلا من راغب في ازدياد
إن حزنا في ساعة الموت أضعا ف سرور في ساعة الميلاد
خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للنفاد (١)
إنما ينقلون من دار أعما ل إلى دار شقوة أو رشاد

والقصيدة طويلة ومنها قوله :

بان أمر الإله واختلف النا س فداع إلى ضلال وهادى
والذي حارت البرية فيه خيوان مستحدث من جماد
فاللبيب اللبيب من ليس يغتـ ـر بكون مصيره للفساد

ومن شعره في ذم الحياة السياسية في عصره :

مل المقام فكم أعاشر أمة
أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

(١) يعني بقاء أرواحهم بعد أجسادهم لحساب الآخرة كما جاء في البيت بعده .

فالحاكم عنده أجير لا مالك يتصرف في رعيته تصرف الملاك ، وهذا أمر جاء به الدين قبل أبي العلاء ، ولكن الشعر العربي لم يجيء به قبله ومنه في ذم الحياة الدينية :

رويدك قد غررت وأنت حر   بصاحب حيلة يعظ النساء[1]
يحرم فيكم الصهباء صبحا   ويشربها على عمد مساء[2]
يقول لكم : غدوت بلا كساء   وفي لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتى ماعنه ينهى   فمن جهتين لا جهة أساء

وقال في الرد على الباطنية القائلين بالإمام المنتظر :

يرتجي الناس أن يقوم إمام   ناطق في الكتيبة الخرساء[3]
كذب الظن لا إمام سوى العقـ   ـل مشيرا في صبحه والمساء
فإذا ما أطعته جلب الرحـ   ـمة عند المسير والإرساء

وقال في قدم الزمان وعدم تناهي المكان كما تذهب الفلاسفة :

ومولد هذى الشمس أعياك حده
وخبر لب أنه متقادم[4]
وأيسر كون تحته كل عالم
ولا تدرك الأكوان جرد صلادم[5]

---

(١) رويدك : مهلا .

(٢) الصهباء : الخمر .

(٣) الكتيبة : الفرقة من الجيش .

(٤) لب : عقل .

(٥) جرد صلادم : خيل شديدة الحافر .

إذا هي مرت لم تعد وراءها
نظائر والأوقات ماض وقادم
فما آل منها بعد ما غاب غائب
ولا يعدم الحين المجدد عادم

وقال أيضا فى هذا النحو من الشعر الفلسفى :

أستحى من شمس النهار ومن
قمر الدجى ونجومه الزهر
يجرين فى الفلك المدار بإذ
ن الله لا يخشين من بهر[1]
ولهن بالتعظيم فى خلدى
أولى وأجدر من بنى فهر[2]
سبحان خالقهن لست أقو
ل الشهب كابية مع الدهر[3]
لا بل أفكر هل رزقن حجى نجبا يمزن به من الطهر[4]
أم هل لأنثاها الحصان بذي التذ كير من قربى ومن صهر[5]

وهو في هـذا يشك فيما يذكر الفلاسفة من أن للكواكب حسا وعقلا . وفيما ورد فى الأساطير من أنها تتصاهر وتتزاوج :

(١) البهر: انقطاع النفس من الاعياء .
(٢) فهر: قريش .
(٣) كابية : يقال رجل كاب ينتدب للخير فلا ينتدب .
(٤) حجي: عقلا ، يمزن: ينتقلن.
(٥) الحصان الطاهرة العفيفة .

وكان يسىء الظن بالمرأة وينهى عن تعليمها ، كما قال :

علموهن النسيج والغزل والرد
ن وخلوا كتابة وقراءة[1]
فصلاة الفتاة بالحمـــد والإخ
لاص تجزى عن يونس وبراءة[2]

وهذا جمود لا يليق بما دعا إليه من إصلاح فى غيره ونسبه إليه شعر كثير فى تحريم لحم الحيوان أشك فى صحته ، لما قدمت من أنه امتنع عنه لسبب خاص به . ولم يشاركه فيه أحد من الملتفين حوله من تلامذته وغيرهم ، ولو دعاهم إليه بمثل هذا الشعر يشاركه على الأقل فيه قليل منهم ، ومما نسب إليه فى ذلك :

غدوت مريض العقل والدين فالقنى
لتسمع أبناء الأمور الصحائح
فلا تأكلن ما أخرج البحر ظالما
ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح[3]
ولا بيض أمات أرادت صريحه
لأطفالها دون الغوانى الصرائح[4]
ولا تفجعن الطير وهى غوافل
بما وضعت فالظلم شر القبائح

(١) الردن: الغزل أيضا أو ضرب منه.
(٢) يعني سورة يونس وسورة براءة .
(٣) غريض : طري .
(٤) الغوانى: الحسان من النساء .

مسحت يدى من كل هذا فليتنى
أبهت لشأنى قبل شيب المسائح[1]

فمطلع هذا الشعر مما لا يحتمله عصر أبى العلاء ، وكذلك ما ورد بعده من الشعر لا يمكن أن يظهر فى زمن أبى العلاء منسوبا إليه ، وقد ظهرت فيه رسائل إخوان الصفا فى علوم الفلسفة وليس فيها مثله ، ومع ذلك لم يمكن أن يظهر معها أصحابها ، حتى اضطرب الناس بهذا فى أمرهم إلى عصرنا .

موازنة بين أبى العلاء والمتنبى :

ويحسن فى ختام الكلام على أبى العلاء إيراد هذه الموازنة بينه وبين المتنبى ، لأن كلا منهما كان شاعراً حكيما عفيف اللفظ لا يعرض للفحش ولا للخنا ، وإن كان المتنبى نسيب جميل وشىء من الهجاء المقذع دون أبى العلاء ، وكان المتنبى لا يغبأ باللغة والقياس لثقته بنفسه ، وتبعه أبو العلاء فى هذا أول أمره ثم عدل عنه ، لقوله فى بعض شعره — فهأنا لا أخون ولا أخان — فاستعمل هأنا من غير اسم الإشارة ، مع أن ها التنبيه لا تدخل على الضمير إلا معها ، فيقال هأنذا ويمكن إجمال ما بينهما من الفروق فيما يأتى :

(١) شعر المتنبى واضح اللفظ ناصع الأسلوب بخلاف أبى العلاء .

(٢) أبو العلاء حكيم دارس استنزل الفلسفة من منزلتها

(١) المسائح : جمع مسيحة وهى شعر جانبى الرأس .

العلمية المقصورة على الكتب إلى حيث تسلك طريق الشعر إلى القلوب . بلا فرق بين ما كان منها فى الأخلاق . وما كان فى الطبيعة والرياضة والألوهية . والمتنبى تكلف الحكمة ولم يتجاوز بشعره ما تعلق منها بالأخلاق .

(٣) المتنبى محب للدنيا متكسب بشعره بخلاف أبى العلاء .

وبهذا ينتهى ما كتبته فى هذا العصر . وكنت أود أن أصل بالكتابة فيه إلى ما وصلت إليه فى العصور قبله . ولكن ما كل ما يتمنى المرءّ يدركه .

وهذا بحثان أدبيان ألحقتهما بهذا الكتاب ليزيدا شيئا فى عدد صفحاته :

(١) الفرسان الشعراء فى الجاهلية والاسلام .

(٢) قصة سعد وسعاد .

إلى بحوث أخرى أدبية .

ملحق بالكتاب

الفرسان الشعراء فى الجاهلية والإسلام :

لم يكن للعرب فى الجاهلية دولة تفرض حكمها عليهم . ويهاب سلطانها أفرادهم وقبائلهم . ويحتمى بها الضعيف من القوى . ويلجأ إليها في أخذ حقه منه عند اعتدائه عليه . نعم كان لهم دولة المناذرة بالعراق ودولة الغساسنة بالشام . ولكن حكمها لم يمتد إلى قلب البلاد العربية . ولم يصل إلى البادية الكبرى التى كانت قبائل العرب تعيش فيها طليقة من كل قيد تتقيد به من حكم أودين . وهذا إلى أن كلا من الدولتين كانتا متعاديتين بسبب وقوع دولة المناذرة فى نفوذ دولة الفرس ، ووقوع دولة الغساسنة فى نفوذ دولة الروم ، وما أدى إليه هذا من وقوع الحروب بين الدولتين ، واشتباكهما فيما وقع من الحروب بين دولتى الفرس والروم ، وانقسام العرب على أنفسهم فى مناصرة الدولتين ، واضطراب حبل الأمن فى بلادهم بسبب هذه الحروب التى لم يكن لهم فيها ناقة ولا جمل ، وإنما كانت مصلحتهم أن يقفوا موقف الحياد بين الدولتين الطامعتين فى حكم بلاد العالم المتنافستين فى هذا الطمع كما تتنافس الدولة الكبرى الاستعمارية فى عصرنا ، وأن يعملوا على تقوية نفوسهم بالاتحاد والأخذ بأسباب النهوض ، حتى لا يقعوا فريسة لإحدى الدولتين

المتنافستين ، ولا يكونوا بانقسامهم على أنفسهم سببا فى نكبة بلادهم بالحكم الأجنبى .

ولكن العرب فى جاهليتهم لم يعرفوا فائدة وقوفهم موقف الحياد بين الدولتين ولا فائدة اتحادهم وعملهم على تقوية نفوسهم بازاء طمع الدولتين فى الاستيلاء على بلادهم ، حتى انقسموا فيما بينهم انقساما شنيعا فى حواضرهم وبواديهم، وصار أمرهم إلى فوضى شاملة ، يعرفون فيها ما بينهم من رابطة الجنس ، ومن رابطة الوطن ومن رابطة اللغة ، وحتى ضاع فى هذا الانقسام الشنيع أقوى دولة عربية بينهم ، وهى الدولة الحميرية التى كانت هى الدولة العربية الوحيدة التى لا تخضع لحكم أجنبى ، فاستولت عليها دولة الحبشة بتحريض دولة الروم ، لما كان بينهما من الاتحاد فى الدين ، كان هذا سببا فى لجوء أمير حميرى ـ سيف بن ذى يزن ـ إلى دولة الفرس لإنقاذ بلاده من دولة الحبشة ، فلما لجأ إليها ساعدته على استرداد بلاده ، ولكنها لم تستردها له إلا لتفرض حكمها عليه ، ثم تولى عليها بعده ولاة من الفرس .

وبهذا وقعت البلاد العربية الجنوبية فى الحكم الأجنبى الفارسى كما وقعت البلاد العربية الشمالية فى الحكم الأجنبى الروسى ، ولم يبق للعرب إلا بواديهم القاحلة فى نجد والحجاز ، تتنازعها قبائلها فى قحط وفقر ، وتتطاحن فيها على لقمة العيش ، فلا يكون أكبر وسيلة للعيش فيها إلا الاعتماد على السلب والنهب ، يجعله ما هم فيه من جهل وفقر عملا مشروعا ، ويغريهم عليه ما هم فيه من فوضى ليس فيها سلطان

رادع ، ولا دين وازع ، وإنما كان السلطان فيها لقوة الفرد ، ولقوة القبيلة ، فيتعدى القوى على الضعيف ، ويستحل ما ينهبه منه بشرع القوة ، بل يعده مفخرة من المفاخرة ، ويتغنى به فى أشعاره ، ثم يشيع هذا بينهم ، فينافس بعضهم بعضا فيه ، وتصير الفروسية وأصحابها من أقوى مظاهره ، بل تصير المثل الأعلى لنيل الشهرة ، وكسب المجد ، ويصير ما تعتمد عليه من السلب والنهب مفخرة المفاخرة إذا كان صاحبها فارسا كريما يبذل ما يسلبه وينهبه لمن يقصده من طلاب العطاء ، فلا يبخل بشيء منه عليهم حتى لا يبقى منه شيئا ، ولا يجد إلا أن يعود إلى شن الغارة ، ليكسب لطلاب العطاء منه ما يرفع من شأنه بينهم ، حتى يصير مقصد الزوار من كل جانب ويصير بيته ملجأ لكل قاصد ، ويضطر إلى مواصلة الغارات ليرضى هؤلاء الطامعين فى سفهه وتبذيره .

وكانت قريش هى القبيلة الوحيدة التى تعتمد على التجارة فى رحلتيها المعروفتين بين القبائل العربية . فلم يرض هذا شاعرها عبد الله بن الزبعرى . وقال فى ذمه :

ألهى قريشا عن المجد الأساطير ورشوة كما ترشى السفافير(١)
وأكلها اللحم بحتا لا خليط له وقولها رحلت عير أتت عير

وكان الفرسان الشعراء فى الجاهلية أظهر فرسان العرب . وكان بعضهم من طبقة الأشراف من أبناء رؤساء القبائل ونحوهم . وبعضهم من طبقة سوقة الناس . وهؤلاء كانوا يسمون الصعاليك . جمع

---

(١) السفافير : السماسرة .

صعلوك وهو فى اللغة الفقير . ولعل هـذا الإسم لم يكن محبوبا فى الجاهلية . ولـكن الفرسان الشعراء من الصعاليك رفعوا منه فى أشعارهم . وأعلوا من قيمته بينهم لأنهم كانوا يغيرون على القبائل فيجمعون المال الـكثير ثم يفرقونه على من يلوذ بهم حتى لا يبقى شيء منه بأيديهم . إيثارا لمـا ألفوه من عيشة الصعلـكة . وحبا فى مغامرات الغزو والنهب . ليتحدث الناس بشجاعتهم وبطولتهم. وبما كان لهم من آداب ومفاخر فى صعلـكتهم . وقد أشار شاعرهم إلى بعضهم فى قوله :

ولله صعـــلوك يساورهمه
ويمضى على الأحداث والدهر مقدما

فتى طلبات لا يرى الخمص ترحه
ولا شبعة إن نالهـا عد مغــنما

إذا ما راى يوما مكارم أعرضت
يتمم كبراهن ثمت صمما

يرى رمحـــه ونبله ومجنه
وذا شطب عضب الضريبة مخذما(١)

وأحناء سرج فاتر ولجامه
عتاد أخى هيجا وطرفا مسوما(٢)

---

(١) مخذما : قاطعا .

(٢) فاتر : يقال فتر الشيء ضم بعضه إلى بعض ، والأمر لازمه ، والطرف : الفرس الكريم .

فذلك إن يهلك فحسنى ثناؤه
وإن عاش لم يقعد ضعيفا مذمما

ومن أشهر الفرسان الشعراء من الصعاليك عروة بن الورد العبسى وكان يلقب عروة الصعاليك . لأنه كان يجمعهم ويقوم بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم . ولم يكن لهم معاش ولا مغزى . وكان الناس إذا أصابتهم سنة شديدة تركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف . فكان عروة يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته فى الشدة . ثم يحفر لهم الأسراب . ويكنف عليهم الكنف ويكسبهم . ومن قوى منهم : إما مريض يبرأ من مرضه . أو ضعيف تثوب قوته . خرج به معه فأغار على القبائل . وجعل لأصحابه الباقين فى ذلك نصيبا . حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله . وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها . فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى .

ومما قاله عروة فى أدب الصعاليك :

لحى الله صعلوكا إذ اجن ليله
مضى فى المشاش آلفا كل مجزر (١)

يعد الغنى من دهره كل ليلة
أصاب قراها من صديق ميسر

ولله صعلوك صفيحة وجهه
كضوء شهاب القابس المتنور (٢)

---

(١) المشاش : رأس العظم اللين .
(٢) القابس : مشعل النار .

وقد أعلى هذا من شأن عروة عند العرب فى الجاهلية ، وكذلك فى الإسلام حين صاروا فيه إلى الاعتزاز بجاهليتهم ، وما كان يعدفيها من مفاخرهم ، حتى قال عبد الملك بن مروان فيه : من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد . وقال أيضا : ما يسرنى أن أحدا من العرب ممن ولدنى لم يلدنى إلا عروة بن الورد ، لقوله :

وإنى امرؤ عافى إنائى شركة
وأنت امرؤ عافى إنائك واحد (١)
أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى
بجسمى شحوب الحق والحق جاهد
أفرق جسمى فى جسوم كثيرة
وأحسو قراح الماء والماء بارد

وكذلك كان رأى أبى جعفر المنصور فى عروة بن الورد ، وهو فى بنى العباس يشبه عبد الملك بن مروان فى بنى أمية ، فكان معجبا به وبأخباره فى التلصص والصعلكة ، وليس هذا بكثير على أمثالهما من جبابرة الملوك فى الإسلام ، وممن أخذ الحكم فيه بقوة السيف ، كما كان عروة يعتمد فى معيشته على هذه القوة ، وينهب بها مال الناس نهبا ، فهذا نهب للمال ، وذاك نهب للحكم ، وكلاهما مما لا يجيزه الإسلام .

وكان عروة ينزل على يهود بنى النضير بجوار يثرب — اسم المدينة قبل الإسلام — فيمكث بينهم ما يمكث ، ويبذر ما ينهبه من القبائل فيما أقاموه هناك من حانات الخمر ودور الدعارة ، وكانوا يقرضونه

(١) العافى : الطالب .

برباهم الفاحش إذا احتاج ، ويبايعهم ما ينهبه إذا غنم ، فيأخذون ما يقرضونه له بالربا الفاحش أضعافا مضاعفة مما ينهبه ، ويعدون له ولأمثاله من المخربين فى العرب حبل الفساد ، ليصلوا إلى أغراضهم فى نشر الفقر والجهل وما إليهما فى بلاد العرب ، ويمكنهم الاستمرار فى استغلال أهلها ونهب أموالهم بالربا الفاحش وغيره ، ولم يكن يعلم إلا الله ما يكون مصيرها بين أبنائها المخربين وأولئك اليهود الجشعين لو لم يتداركها بالإسلام الذى انتشلها من ذلك الجهل والفساد وقضى على ذلك التخريب والنهب من فرسانها الضالين واليهود والطامعين .

ولم يكن عروة ينهب المال وحده من القبائل ، بل كان ينهب النساء أيضا ، فيسلبهن حريتهن ويبيعهن فى سوق الرقيق ، وقد يختار الجميلة لنفسه فيتخذها أمة ، ويضيفها إلى نسائه الأحرار والإماء ، كما نهب مرة امرأة من كنانة يقال لها سلمى حين أغار على قومها ، فأعتقها واتخذها لنفسه ، فمكثت عنده بضع عشرة سنة ، وولدت له أولادا ، وكان يعتقد أنها أرغب نسائه فيه ، لأنها كانت معجبة بشجاعته ، ولكنها كانت تضمر ألما فى نفسها لحريتها التى فقدتها ، لأنها لم تخرج بعتقه لها عن كونها مولاة لاحرة أصيلة ، وكانت ضرائرها ينظرن إليها باحتقار من أجل ذلك ، فيثرن فى نفسها من الألم ما تفضل معه أن تسترد حريتها فى قومها على عروة وأولادها منه .

فأرادت أن تحتال عليه لتلحق بقومها وتسترد حريتها ، فقالت له : لو حججت فأمر على أهلى وأراهم . فحج بها إلى مكة ، ثم قصد

يثرب ليمر على يهود بنى النضير ، وكان مخالطا لهم كما سبق ، وكان أهلها يخالطونهم أيضا ، لأنهم تمكنوا بدهائهم وثرائهم من بسط سلطانهم الاقتصادى على جميع العرب ، فالتقت سلمى بقومها عندهم، فقالت لهم : إن عروة خارج بى قبل أن يخرج الشهر الحرام ، فتعالوا إليه وأخبروه أنكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة النسب صحيحته سبية ، وافتدونى منه ، فإنه لا يرى أنى أفارقه ولا أختار عليه أحداً .

فأتوا عروة فسقوه من شراب أولئك اليهود حتى ثمل ، فلما ثمل قالوا له : فادنا بصاحبتنا ، فإنها وسيطة النسب فينا معروفته ، وإن علينا سبة أن تكون سبية ، فاذا صارت إلينا وأردت معاودتها فاخطبها إلينا ، فإننا ننكحك .

فقال لهم عروة : ذاك لكم ، ولكن لى الشرط فيها أن تخيروها، فإن اختارتنى انطلقت معى إلى ولدها ، وإن اختارتكم انطلقتم بها

فلما فادوه بها خيروها بينهم وبينه فاختارتهم ، ثم أقبلت عليه فقالت له : يا عروة ، أما إني أقول فيك وإن فارقتك الحق ، والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك ، وأغض طرفاً ، وأقل فحشا ، وأجود يداً ، وأحمى لحقيقته ، وما مر على يوم مذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إلى من الحياة بين قومك ، لأنى لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول - قالت أمة عروة كذا وكذا - إلا سمعته ، والله لا أنظر فى وجه غطفانية أبداً (١) فارجع راشدا إلى ولدك وأحسن إليهم .

---

(١) نسبة إلى غطفان وكان بنو عبس منهم .

ويروى أيضا أنه سبى امرأة من بنى عامر يقال لها ليلى بنت شعواء فمكثت عنده زمانا وهى تريه أنها تحبه ، ثم استزارته أهلها ، فلما أراد الرجوع أبت أن ترجع معه ، وتوعده قومها بالقتل ، فانصرف عنهم وأقبل عليها فقال لها : يا ليلى ، خبرى صواحبك عنى كيف أنا فقالت له : ما أرى لك عقلا ، أترانى قد اخترت عليك وتقول خبرى عنى . فقال فى ذلك :

تحن إلى ليلى بجو بلادها
وأنت عليها بالملا كنت أقدرا
وكيف ترجيها وقد حيل دونها
وقد جاوزت حيا بتيماء منكرا

وكان بنو عامر قد أخذوا امرأة من بنى عبس يقال لها أسماء بدل ليلى ، فلم تلبث عندهم إلا يوما حتى استنقذها بنو عبس منهم فبلغ عروة أن عامر بن الطفيل فخر بأخذه لأسماء ، وكان من فرسان العرب أيضا ، فقال يعيرهم بأخذه لليلى بنت شعواء :

إن تأخذوا أسماء موقف ساعة
فمأخذ ليلى وهى عذراء أعجب
لبسنا زمانا حسنها وشبابها
وردت إلى شعواء والرأس أشيب

فهذه كانت حالة فرسان العرب فى جاهليتهم ؛ وهذه كانت مفاخر الفرسان الشعراء منهم ، كان بعضهم ينهب بعضا ، وكانوا لا يتورعون عن نهب النساء مع الأموال ، وكانت هذه العنجهية تنقلب

إلى خضوع معيب لليهود الطامعين فيهم ، لأنهم كانوا يرضون شهواتهم بوسائل اللهو من الخمر وغيرها ليزيدوا فى مفاسدهم ، فكانوا يعيشون فى هذا الضلال كالبهائم ، بل كانوا أضل سبيلا، وأقبح ضلالا .

ويمكننا أن نلخص أمر هؤلاء الفرسان فيما يأتى :

١ — أن حروبهم كانت عدوانية لا يحملهم عليها إلا شهوة القتال ، وإلا المباهاة بالقوة والشجاعة فى أشعارهم ، وإلا المفاخرة بنهب المال وهتك أعراض النساء .

٢ — أن حروبهم كانت لأغراض شخصية كما يفعل اللصوص سواء بسواء ، فكان ما يغنمونه لقضاء شهواتهم وملذاتهم ، فإذا أشركوا غيرهم فيه فإنما يشركون مخربين مثلهم ، كما كان يفعل عروة بن الورد مع صعاليكه .

٣ — أنهم كانوا أصحاب السلطان فى بلاد العرب ، لأنهم كانوا حماة القبائل فى تفرقها وتحاربها ، فكانوا يعيشون فى الأرض فسادا ، لا يخشون سلطان حكومة تردعهم ، وليس لهم وازع من دين يردهم عن فسادهم .

٤ — أنهم كانوا يجدون إغراء على الفساد من عناصر يهودية تساعدهم باقراض المال بالربا عند حاجتهم ، وتزيد فى فسادهم وطغيانهم بما تقدمه لهم من وسائل اللهو الحرام من خمر وغيرها ، إذ كانت فى ديارها ندوات للفساد ، من حانات الخمر ، إلى بيوت البغاء ، إلى غير هذا من ضروب الفسق التى كانوا يتهافتون عليها تهافت

الفراش على النار ، ليبيعوا ما ينهبونه فى غاراتهم بأبخس الأثمان ، وينفقوه فى الخمر ونحوها بأغلى الأثمان ، حتى لايخرجوا منها بشىء من ثمن ما نهبوه ، ويمدوا أيديهم إلى أصحابها من اليهود ليقرضوهم بالربا الفاحش ، ثم يعودوا إلى النهب والسلب ثانيا ، ليعودوا إلى تلك الندوات الفاسدة ، ويؤدوا بعض ما عليهم من الديون ، وينفقوا فى الخمر وغيره ما ينفقون ، حتى تتراكم ديون اليهود عليهم ، ويصيروا ألعوبة فى أيديهم ، يحركونهم كما يشاءون ، ويستخدمونهم فى قضاء مآربهم فى بلاد العرب كما يشتهون .

فلما ظهر الإسلام لم يرض عن هذا الفساد كله ، وعمل على إصلاحه والقضاء على أسبابه ، وكان من أهمها تفرق العرب إلى قبائل متحاربة يظهر فيها سلطان أولئك الفرسان ، فعمل على توحيدها ليكون منها أمة واحدة تجتمع على دين واحد ودولة واحدة ، حتى لا يكون هناك سلطان فيها لغير دينها ودولتها ، ولا يكون لها فرسان متمردون كفرسانها فى الجاهلية ، بل يكون لها فرسان خاضعون لدينها ودولتها ، عاملون لمصلحة الدين والوطن ، لا لمصالحهم الشخصية .

وكانت هناك بقايا من أولئك الفرسان بعد ظهور الإسلام ، فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم يصلح من نفوسهم ، ويسلك فى هذا أدق العلاج النفسى ، ومن ذلك أن أحدهم وفد عليه ، وهو زيد الخيل النبهانى ، وكان فارسا شاعرا ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم ، ثم سماه زيد الخير بدل زيد الخيل ، ليقلع من نفسه ما يغريه به اسمه

القديم ، وينزع منها حب تلك البطولة الشريرة ، وكان أيضا يؤلف من أسلم منهم بالمال لضعف إسلامهم بما كان من تغاليهم فى فسادهم ، وليعوض به ما أبطله من سبل عيشهم ؛ ثم وجه الشعر توجيها قويا يبعد به عن التباهى بذلك الفساد ، ويكون التباهى فيه بالعمل النافع فى الدنيا والآخرة إن صح التباهى به ، لأنه يجب أن يكون لوجه الله وحده ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى عبد الله بن رواحة من شعراء الإسلام : « إن أخا لكم لا يقول الرفث؛ وهو ابن رواحة» وكان مما قاله :

وفينا رسـول الله يتلو كتابه
إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافى جنبـه عن فراشه
إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

ومن لم يردعه منهم هذا العلاج النفسى عالجه بالقوة ، ليخضعه لسلطان الحكومة التى أقامها الاسـلام لهم ، حتى لا يكون هناك سلطان إلا سلطانها ، فيستقر الأمن فى البلاد ، وتبطل غارات أولئك الفرسان ، ويتجه كل واحد إلى الكسب الحلال والعمل النافع .

وقد قامت فى الاسلام حروب ولكنها لم تكن كحروب أولئك الفرسان للسلب ، وللتباهى بها فى الشـعر ، ولكنها كانت حروب جيوش منظمة للدفاع عن دعوة الاسلام ، لا لنهب المـال والعدوان

على الآمنين ، وكان فى هذه الجيوش فرسان شعراء وغير شعراء ، ولكن لم يكن لهم سلطان يعلو على سلطان غيرهم ، بل كانوا خاضعين لسلطان الحكم الاسلامى ، يحاربون بأمره إذا شاء ، وينتهون بنهيه إذا شاء ، طاعة لاطغيان ، ونظام لافوضى ، وعفة لافجور ، وأمانة لا خيانة .

وكان لفرسان الشعراء فى الاسلام أشعار ، ولكنها كانت أشعارا كريمة ، لا تقلب فيها الحقائق ، ولا تجعل من الباطل حقا ولا من الحق باطلا ، ولا تقصد إلى الشهرة وبعد الصيت وإنما تؤثر إنكار النفس ، وتتطلع إلى حسن الذكر فى الدنيا والآخرة .

وكان عبد الله بن رواحة الذى وصف النبى صلى الله عليه وسلم شعره بما سبق من الفرسان الشعراء ، وله موقف كريم فى جيش مؤتة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم جعل زيد بن حارثة أميراً على هذا الجيش ، فإن قتل فالأمير جعفر بن أبى طالب ، فإن قتل فالأمير عبد الله بن رواحة ، فلما قتل الأميران أخذ عبد الله اللواء ، وكان جيش الروم يبلغ أضعاف جيش المسلمين ، فلم يجبن عن لقائهم بعد قتل صاحبيه ، بل تقدم باللواء وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه ويطوعها للقتال ، ثم قال :

أقسمت يا نفس لتنزلنه
لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة
مالى أراك تكرهين الجنة(١)

(١) الرنة : صوت فيه ترجيع يشبه البكاء

قد طالما قد كنت مطمئنه
هل أنت إلا نطفة فى شنه(١)

ثم قال :

يا نفس إلا تقتلى تموتى
هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت
إن تفعلى فعلهما هديت(٢)

ثم تقدم فقاتل بجيشه القليل العدد جموع الروم البالغة أضعافه حتى قتل فى سبيل الله تعالى ، وفى سبيل الذكرى الحسنة فى الدنيا والآخرة .

وليس فى هذه الأبيات تفاخر بشجاعة ولا مباهاة من مباهات الفرسان الشعراء فى الجاهلية ، وإنما هى نفس لم تطبع على حب القتال وسفك الدماء ، ولا تقاتل شهوة فى القتال وسفك الدماء ، وإنما تكره على القتال لدفع العدوان عنها ، فتقاتل مضطرة ، ولا تقصد من القتال إلا رضا الله تعالى بالدفاع عن دينه .

وبهذا اختفت تلك الظاهرة الآثمة بين الفرسان الشعراء فى الاسلام على عهد النبوة والخلفاء الراشدين ، فلما قامت دولة بنى أمية وفرضت حكمها على المسلمين بالقوة ، عادت تلك الظاهرة الآثمة إلى الظهور بين الفرسان الشعراء فى الاسلام ، لأن الناس على دين

(١) الشنة : القربة القديمة .

(٢) ضمير فعلهما لزيد وجعفر اللذين قتلا قبله .

ملوكهم ، فإذا اعتمد ملوكهم فى حكمهم على القوة اعتمدوا عليها أيضا فيما بينهم ، فظهر فى أوائل عهد بنى أمية بعض من الفرسان الشعراء الذين أعادوا عهد أسلافهم فى الجاهلية ، من شن الغارات على القبائل للسلب والنهب ، والافتخار بها والتباهى فى أشعارهم ، ومنهم توبة صاحب ليلى الأخيلية .

وهو توبة بن الحمير - بضم الحاء وفتح الميم وتشديد الياء المكسورة - وكان يغير فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، وذكر أبوعبيدة أنه كان شريرا كثير الغارة على بنى الحارث بن كعب وخثعم وهمدان ، فكان يزور نساء منهن يتحدث إليهن ويلهو معهن ، ومن شعره فى ذلك :

أيذهب ريعان الشباب ولم أزر
غرائر من همدان بيضا نحورها

وكان ربما ارتفع إلى بلاد مهرة فيغيرعليهم ، وبين بلاد مهرة وبلاد قومه بنى عقيل مفازة منكرة لايقطعها الطير ، فيحمل مزاد الماء فيدفن منه على مسيرة كل يوم مزادة ، ثم يغير عليهم فيطلبونه فيركب بهم المفازة ، وإنما كان يتعمد حمارة القيظ وشدة الحر ، فإذا ركب المفازة رجعوا عنه .

وكان توبة يتعشق ليلى الأخيلية ، وهى من قومه بنى عقيل ، فقال فيها الشعر ، وخطبها إلى أبيها فأبى وزوجها لغيره ، فلم ينقطع عن عشقها وزيارتها فى غيبة زوجها ، فعاتبه أخوها وأهلها فلم يسمع لهم ، فشكوه إلى السلطان فأهدر دمه إن أتاهم ، وعلمت ليلى بذلك

وجاءها زوجها وكان غيورا ، فحلف : لئن تعلمه بمجيئه ليقتلنها ولئن أنذرته بذلك ليقتلنها ، فرصدته فى الموضع الذى يجيئها منه ، ورصدوه بموضع آخر ، فلما أقبل لم تقدر على كلامه لليمين الذى حلفته ، فسفرت وألقت برقعها عن رأسها ، فلما رأى ذلك أنكره وركب راحلته ومضى ففاتهم . وقال فى ذلك قصيدته :

نأتك بليلى دارها لا تزورها
وشطت نواها واستمر مريرها[1]

وهى طويلة يقول فيها :

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت
فقد رابنى منها الغداة سفورها

فكان بعد هذا يراسلها وتراسله ، وقد وجه يوما صاحبا له إلى حاضرها ، وقال له : إذا أتيت الحاضر من بنى عبادة بن عقيل فاعل شرفا ثم اهتف بهذا البيت :

عفا الله عنها هل أبيتن ليلة
من الدهر لا يسرى إلى خيالها

فلما هتف بذلك عرفت المعنى فقالت له :

وعنه عفا ربى وأحسن حاله
عزيز علينا حاجة لا ينالها

ثم وقعت منافرة بينه وبين السليل بن ثور بن أبى سمعان بن عامر ابن عوف بن عقيل ، وكان شريرا ونظيره فى القوة والبأس ،

(١) استمر مريرها : المرير العزيمة وما اشتد فتله من الحبال ، واستمر اشتد.

فتواعد كل منهما صاحبه ، والتقيا بعد هذا على غدير من ماء السماء ؛ فرمى توبة السليل فقتله(١) ثم أغار توبة ثانية على إبل بنى السمين ابن كعب بن عوف بن عقيل فاطردها . وكان معه أخوه عبد الله ورجل يقال له قابض من بنى كلاب . ثم سار بالابل إلى عبد العزيز ابن زرارة من بنى كلاب لينزل بها عنده . فخرج ابن عم للسليل بن ثور المقتول إلى قومه فركبوا فى طلبه فأدركوه قبل أن يصل إلى عبد العزيز بن زرارة فقتلوه وقطعوا رجل أخيه عبد الله . ففر قابض إلى عبد العزيز وقال له : قتل توبة . فنادى فى قومه فجاءه أبوه زرارة فقال . أين تريد ؟ فقال : قتل توبة . فقال له : سحقا لك ، أتطلب بدم توبة أن قتلته بنو عقيل ظالما لها . باغيا عاديا عليها . قال : لكنى أجنه إذن . قال أبوه : أما هذه فنعم . فألقى السلاح وانطلق حتى أجنه وحمل أخاه عبد الله إلى قومه .

نعم قتل توبة كما قال زرارة ظالما باغيا ، وهى كلمة حق كان من الواجب أن تقال فى عهد غلب فيه الشر على الخير ، ولكن كيف لليلى الأخيلية أن تعرف هذا وكان بينها وبين توبة ذلك الحب ، والحب يعمى ويصم ؟ فما أن بلغها قتله حتى أخذت ترثيه وتبكيه بكاء الأبطال وتصوره فى رثائها صورة عظماء الرجال ، وكانت تفد على معاوية وعلى عبد الملك بن مروان وعلى الحجاج بن يوسف وتفاخر به عندهم ، فيرضون عن مفاخرتها به ويجيزونها عليه ، لما لهم من المآرب السياسية فى عودة القبائل العربية بعد إسلامها كما كانت

---

(١) الرواية فى هذا مضطربة ، فمرة تذكر السليل فى هذا ، ومرة تذكر أباه ثورا وأنه هو الذي أخذ ثأره .

عليه فى جاهليتها وهذا إلى شيء من العنجهية العربية كان عندهم ولم يقتلع الإسلام جذوره من نفوسهم .

ومن هذا أنها وفدت على معاوية فقال لها : ويحك يا ليلى ، أكما يقول الناس كان توبة ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، ليس كل ما يقول الناس حقا ، والناس شجرة بغى ، يحسدون أهل النعم حيث كانت وعلى من كانت ، ولقد كان يا أمير المؤمنين سبط البنان ، حديد اللسان ، شجاً للأقران ، كريم المخبر ، عفيف المئزر ، جميل المنظر ، وهو يا أمير المؤمنين كما قلت ، ولم أتعد الحق وعلمى فيه :

بعيد الثرى لا يبلغ القوم قعره ألد ملد يغلب الحق باطله (١)
إذا حل ركب فى حماه وظله ليمنعهم مما تخاف نوازله
حماهم بنصل السيف من كل فادح
يخافونه حتى تموت خصائله (٢)

فقال لها : ويحك ، يزعم الناس أنه كان عاهرا خاربا . فقالت من ساعتها :

معاذ إلهى كان والله سيداً جوادا على العلات جما نوافله (٣)
عفيفا بعيد الهم صلبا قناته جميلا محياه قليلا غوائله
يبيت قرير العين من بات جاره ويضحى بخير ضيفه ومنازله

---

(١) ألد : شديد الخصومة لا يزيغ إلى الحق من لد الثلاثى ، وملد اسم فاعل من ألد بمعني شديد الخصومة على التأكيد .

(٢) خصائله : جمع خصيلة وهي كل لحمة فيها عصب .

(٣) العلات جمع علة وهى الحدث يشغل صاحبه .

فقال لها: ويحك يا ليلى، لقد جزت بتوبة قدره. فقالت: والله يا أمير المؤمنين لو رأيته وخبرته لعرفت أنى مقصرة فى نعته، وإنى لا أبلغ كنه ما هو أهله. فأمر لها بجائزة عظيمة، وكأنى به قد اقتنع برأيها فيه، مع أنه كان يكفيه قولها فيه ـ ألد ملد يغلب الحق باطله ـ لأن هذا ليس من الإسلام فى شيء.

وكذلك وفدت على الحجاج بن يوسف تمدحه لأخذ جوائزه، فلما دخلت عليه قال لها: كيف خلفت قومك؟ قالت: تركتهم فى حال خصب وأمن ودعة، أما الخصب ففى الأموال والكلأ، وأما الأمن فقد أمنهم الله عز وجل بك، وأما الدعة فقد خامرهم من خوفك ما أصلح بينهم. ثم قالت: ألا أنشدك. فقال لها: إذا شئت فقالت:

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما الـ
منايا بكف الله حيث يراها
إذا هبط الحجاج أرضا مريضة
تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها
غلام إذا هز القناة سقاها (١)
سقاها دماء المارقين وعلها
إذا جمحت يوما وخيف أذاها(٢)

---

(١) القناة: الرمح.
(٢) علها: سقاها ثانية

فلما قالت ـ غلام إذا هز القناة سقاها ـ قال : لا تقولى غلام ، قولى همام . وقالت أيضا فى مدحه :

حجاج أنت الذى لا فوقه أحد
إلا الخليفة والمستغفر الصمد
حجاج أنت سنان الحرب إن نهجت
وأنت للناس فى الداجى لنا تقد (١)

فقال لها . أنشدينا ما قلت فى توبة . فأنشدته قولها :

فإن تكن القتلى بواء فإنكم
فتى ما قتلتم آل عوف بن عامر (٢)
فتى كان أحيا من فتاة حيية
وأشجع من ليث بخفان خادر (٣)
فنعم الفتى إن كان توبة فاجرا
وفوق الفتى إن كان ليس بفاجر

فقال لها أسماء بن خارجة الفزارى : أيتها المرأة . إنك لتصفين هذا الرجل بشيء ما تعرفه العرب فيه . فقالت : أيها الرجل . هل رأيت توبة قط ؟ قال : لا . فقالت : أما والله لورأيته لوددت أن كل عاتق فى بيتك حامل منه . فكأنما فقىء فى وجه أسماء حب الرمان حين سمع هذا . فقال له الحجاج : وما كان لك ولها . ثم أجزل صلتها .

---

(١) سنان الحرب : رمحها ، وتقد : تضئ أي تظهر ماخفي من الأمور .
(٢) بواء : دماؤها متساوية .
(٣) خفان : مأسدة ، وخادر : مقيم فى عرينه .

وهكذا وجدها الحجاج ترفعه في مدحها حتى تجعله في المرتبة الثالثة بعد الله تعالى وخليفة بني أمية . وتنسى علماء الأمة وصلحاءها ممن كانوا لا يرضون عنها ولا عن توبة ولا عن الحجاج . فلم يجد إلا أن ينصرها على أسماء بن خارجة حين أبدى رأيه في توبة ولم يرض في أدب عن مجاوزتها الحدّ في أمره . فأسمعته من قولها الفاحش ما أسمعته .

وكذلك وفدت على عبد الملك بن مروان فدخلت أولا على زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية . فدخل عبد الملك على زوجته فرآها وكانت امرأة بدوية فأنكرها وقال لها : من أنت ؟ قالت : أنا الوالهة الحرّى ليلى الأخيلية . فقال لها : أنت التي تقولين :

أريقت جفان ابن الخليع فأصبحت
حياض الندى زلت بهن المراتب[1]

فقالت : أنا الذي أقول ذلك . فقال : فما أبقيت لنا ؟ قالت : الذي أبقاه الله لك . قال : وما ذاك ؟ قالت : نسبا قرشيا . وعيشا رخيا . وإمرة مطاعة . فقال : أفردته بالكرم . فقالت أفردته بما أفرده الله به .

فقالت عاتكة : إنها قد جاءت تستعين بنا عليك في عين تسقيها وتحميها لها . ولست ليزيد إن شفعتها في شيء حاجتها لتقديمها أعرابيا جلفا على أمير المؤمنين . .

(١) الخليع هو كعب بن ربيعة بن عقيل من آباء توبة .

فوثبت ليلى فقامت على رجلها غاضبة لقولها ـ أعرابيا جلفا ـ واندفعت تقول :

ستحملني ورحلي ذات رخد
عليها بنت آباء كرام[1]
إذا جعلت سواد الشام جنبا
وغلق دونها باب اللئام
فليس بعائد أبداً إليهم
ذوو الحاجات فى غلس الظلام
أعاتك لو رأيت غداة بنا
عزاء النفس عنكم واعتزامى
إذن لعلمت واستيقنت أنى
مشيئة ولم ترعى ذمامى
أأجعل مثل توبة فى نداه
أبا الذبان فوه الدهر دام[2]
معاذ الله ما عسفت برحلى
تغذ السير للبلد التهامى[3]
أقلت خليفة فسواه أحجى
بإمرته وأولى باللثام[4]

(١) وخد: سير سريع.

(٢) أبو الذبان كنية عبد الملك لأن الذبان كانت تتهافت على فيه لما ذكرته

(٣) تغذ السير : تسرعه ، والبلد التهامي مكة .

(٤) لثم الرجل والتثم شد اللثام على أنفه أو فمه تعنى لثام الملك كما ذكرت فى البيت بعده .

لئام الملك حين تعد بكر
ذوو الأخطار والخطى الحسام[1]

وكل من عبد الملك وليلى منحرف فى هذا عن الجادة ، وكل منهما لم يغضب لله أو للحق حين غضب ، فهو قد غضب عليها لأنها أفردت توبة بالكرم ولم تبق له وهو الملك الذى لا يذكر توبة بجانبه شيئا ولو أنها لم تفرده بالكرم لكان رأيه فيه مثل رأيها ، وهى لم تغضب إلا لأن عاتكة جعلت توبة أعرابيا جلفا ؛ ولو أنها لم تقل هذا فيه لم يكن عبد الملك أبا الذبان ، بل كان فى المنزلة عندها بعد الله تعالى ؛ كما قالت فى مدح الحجاج :

حجاج أنت الذى لا فوقه أحد
إلا الخليفة والمستغفر الصمد

وكل هذا الإطراء تأتى به فى توبة الذى كان يعشقها ، وكان زوجها لا يزال حيا ؛ ولم تزل مصرة عليه إلى أن وافتها منيتها ، ويروى فى موتها أنها أقبلت من سفر فمرت بقبره ومعها زوجها وهى فى هودج لها ، فقالت : والله لا أبرح حتى أسلم على توبة . فجعل زوجها يمنعها من ذلك وتأبى إلا أن تلم به ، فلما كثر ذلك منها تركها فصعدت أكمة عليها قبره ، فقالت : السلام عليك ياتوبة . ثم حولت وجهها إلى القوم فقالت : ما عرفت له كذبة قط قبل هذا . فقالوا : وكيف ؟ قالت : أليس القائل :

---

(١) الخطى المنسوب إلى بلد الخط بتخفيف الياء لضرورة الشعر ، والحسام القاطع ، ولعله تحريف عن الخطط الجسام ، وفى بعض الروايات : حين تعد كعب .

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت
على ودونى جندل وصفائح [1]
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا
إليها صدى من جانب القبر صائح [2]
وأغبط من ليلى بما لا أناله
ألا كل ماقرت به العين صالح

فما باله لم يسلم على كما قال ؟

وكانت إلى جانب القبر بومة كامنة ، فلما رأت الهودج واضطرابه فزعت وطارت فى وجه الجمل ، فنفر فرمى بليلى على رأسها فماتت من وقتها . فدفنوها إلى جنبه ، وقد ذكر صاحب الأغانى أن هذا هو الصحيح فى خبر موتها .

(١) الجندل : الصخر العظيم . والصفائح جمع صفيحة وهو الحجر العريض .

(٢) زقا الطائر صاح ، والصدي نوع من البوم عظيم الرأس أينما درت أدار رأسه قبلك ، وهو يأوي إلى الأماكن الخربة المظلمة ، ويسمى أيضا الهامة وكانوا يزعمون أنه يخلق من رأس المقتول ولايزال يصيح فى رأسه إذا لم يؤخذ ثأره

قصة سعد وسعاد

كان سعد فتى من بني عذرة عشق بنت عمه سعاد ، وكانت من المبرزات فى الجمال والحياء ، وله معها قصة قد تكون صحيحة وقد تكون موضوعة ، فمثل هذا قيل فى قصة المجنون وليلى ، ولكنه تزوجها ولم يمنع منها كما منع المجنون من ليلاه ، وكان له مال فجعل ينفقه عليها حتى نفد ، فلما عجز عن الانفاق عليها أراد أبوها أن يطلقها منه فأبى ، فشكاه إلى وال عليهم من قبل معاوية بن أبى سفيان فسجنه وضيق عليه السجن والقيود حتى طلقها كارها ، فدفع إلى أبيها عشرة آلاف درهم وتزوج بها ، فذهب سعد إلى معاوية ليشكوه إليه ، وكان معاوية يجلس كل يوم لسماع شكوى الناس ، فدخل عليه فى جمع وأخذ مجلسه فيمن جلس أمامه للشكوى ، ثم قام فأنشد :

معاوى ياذا الحلم والفضل والعقل
وذا البر والإحسان والجود والبذل
أتيتك لما ضاق فى الأرض مسلكى
وأنكرت مما قد أصيب به عقلى
ففرج كلاك الله عنى فاننى
لقيت الذى لم يلقه أحد قبلى

وخذ لى هداك الله حقى من الذى
رمانى بسهم كان أهونه قتلى
وكنت أرجى عدله إذ أتيته
فأكثر تردادى مع الحبس والكبل
فطلقتها من جهد ما قد أصابنى
فهذا أمير المؤمنين من العدل (١)

فاستدناه معاوية منه وقال له : ماشأنك ؟ فذكر له قصة واليه معه ، فكتب معاوية إليه يغلظ عليه ويأمره بالتخلى عنها ، ويقول فى آخر الكتاب :

ركبت ذنبا عظيما لست أعرفه
فاستغفر الله من جور امرىء زانى
قد كنت تشبه صوفيا له كتب
من الفرائض أو آيات قرآن
طلق سعاد وفارقها بمجتمع
وأشهد على ذاك نصرا وابن ظبيان

فطلقها وأرسلها إليه فقيل إن الناس تعجبوا من حسنها ، وقالوا هذه لا تصلح لأعرابى ، إنما تكون لأمير المؤمنين .

فعجب معاوية منها حين رآها ، ثم استنطقها فإذا هى فتنة، فقال لابن عمها سعد : هل لك فى عوض عنها ؟ قال : نعم إذا بان رأسى عن بدنى . ثم أنشد :

---

(١) هذا منه على سبيل الاستفهام الانكار ، أي أنه ليس من العدل .

لا تجعلنى والأمثـــال تضرب بى
كالمستجير من الرمضاء بالنار

اردد سعاد على حران مكتئب
يمسى ويصبح فى هم وتذكار

قيل : فغضب معاوية من ذلك ، وخيرها بينه وبين واليه وابن عمها ، فأنشدت :

هــــذا وإن أصبح فى أطمار
وكــان فى نقص من اليسار

أكبر عندى من أبى وجارى
وصاحب الدرهم والدينار

فقال معاوية : خذها لابارك الله لك فيها . وأمر أن تقيم إلى تمام العدة ، فلما انقضت دفعها إليه مع ناقة وعشرة آلاف دينار .

وكان للأستاذ على الجندى مقال فى هذه القصة نشره فى مجلة الرسالة ، وقد وجد فيها مجالا واسعا للتحدث عن البدو فى حبهم وعفتهم وزواجهم وعاداتهم ، ولم يقتصر فيها على حوادثها، بل كان للخيال حظ عظيم فى مقاله ، ولـكنه فيما ذكر خيال يسامى الحقيقة فى الصدق ، لأنه يتكىء عليها وينبثق منها ، وإن كان قد توسع فى بعض المواقف فأنطق سعدا شعرا لم يقله ، لأن المقام يحتم ذلك ، وأدب القصة يبيح هذا التوسع .

فلفت نظرى ما ذكره فى مقاله من أن والى معاوية الذى اغتصب

سعاد من سعد هو مروان بن الحكم كما لفته أيضا هذا البيت :

قد كنت تشبه صوفيا له كتب
من الفرائض أو آيات قرآن

لأن مروان بن الحكم لم يكن رجلا مفتونا مدلا بنفسه كما ذكر الأستاذ الجندى ، بل كان رجلا كبيرا يطمح إلى ما يطمح إليه كبار الرجال ، ولا يصح أن يقع فى مثل تلك الصغائر ، وكان ذا عقل ودهاء وسياسة ، وقد اشتغل بالسياسة العالية من شبابه إلى كبره ، فكان مشير عثمان بن عفان ووزيره فى خلافته وكان ندا فى السياسة لأمثال على بن أبى طالب والزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله ومعاوية بن أبى سفيان وغيرهم ، ولم يزل يطمح إلى أبعد الغايات ، ويعمل على أن يظفر بملك المسلمين ، حتى وصل إلى ما كان يطمح إليه من ذلك ، وكان المؤسس الثانى لدولة بنى أمية ، لأنها كادت تذهب بعد موت معاوية وابنه يزيد ، حتى إنها لم يبق لها إلا ملك الشام وما إليه ، فلم يزل يقاوم عبد الله بن الزبير هو وابنه عبد الملك من بعده ، حتى أعادا الدولة الأموية إلى مثل ما كانت عليه ، فكانت هى الدولة الإسلامية الوحيدة إلى أن تغلبت عليها الدولة العباسية ، فانحصر ملكها فى بلاد الأندلس ، وكان لها فيه ملك يسامى عظمة ملك الدولة العباسية فى المشرق ؛ فمثل هذا الرجل الكبير لا يصح أن يقع فى الصغيرة السابقة التى وردت بتلك القصة ، وله مكانته وزعامته فى بنى أمية ، ولا يصح أن يظهر فيها بمظهر الوالى الذليل لمعاوية ؛ وهو الذى كان يساميه فى نسبه

وزعامته لتلك الأسرة الحاكمة من قريش ، ولهذا كان معاوية يلاينه ويداريه ، حتى إنه كما عهد لابنه يزيد كتب إليه يأمره بأخذ البيعة له على أهل المدينة ، فأبى هذا عليه وأباه أهل المدينة معه ، ثم ذهب إليه مغاضبا فى نفر من أهل بيته ، وأنكر عليه خروجه على ما سار عليه الخلفاء قبله من جعل ذلك الأمر شورى بين المسلمين ، وتأميره للصبيان عليهم ، فأهم معاوية أمره ، واشترى رضاه بالمال ، ففرض له ألف دينار فى كل هلال ، وفرض له فى أهل بيته مائة مائة ، وليكن بعد هذا مروان ما يكون ، لأنى استكثرت هذا عليه لأنه كان رجلا كبيرا لا يقع فى مثل تلك الصغائر ، لا لأنه كان رجلا عادلا يتنزه عن الظلم .

وقد حملنى استبعادى لوقوع هذا من مروان بن الحكم على مراجعة القصة فى مظانها ، فرجعت إليها فى كتاب ـ تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق ـ للشيخ الضريرالفيلسوف داود الأنطاكى الطبيب المعروف ، وصاحب التذكرة المشهورة فى الطب ، فوجدته يذكر أن سعدا لما أملق رفع أبوها أمره إلى ابن أم الحكم ، ففعل معه مافعل مما سبق ، لا إلى مروان بن الحكم .

وهذا عندى هو الحق فى تلك القصة إن كانت صحيحة ، وابن أم الحكم هو عبد الرحمن بن عبد الله الثقفى ، اشتهر بكنيته المنسوب فيها إلى أمه أم الحكم بنت أبى سفيان بن حرب ، وكان خاله معاوية يوليه بعض أعماله ، فيسيء السيرة فيها ، فمثله هو الذى يليق أن ينسب إليه الصغيرة السابقة فى تلك القصة لا مروان بن الحكم

وإنى أرجح أن الرواية التى ورد فيها اسمه نشأت عن الاشتباه بين الاسمين ؛ والمعقول فى هذا أن يشتبه اسم ابن أم الحكم بمروان ابن الحكم ؛ لأن الثانى أشهر من الأول ؛ فمن القريب جدا أن يكون بعض الرواة أو النساخ أبدل الثانى بالأول ؛ لأنه لم يسمع إلا به ؛ لشهرته بين ملوك بنى أمية .

وأما البيت السابق فوضعه فى تلك القصة ظاهر كل الظهور ، لأن نظام التصوف لم يكن قد حدث فى عصر معاوية ، ولم يكن فيه كتب صوفية يحملها المتصوف ، وهى كتب الأوراد ونحوها مما يفرضه المتصوف على نفسه ، وقد قيل إن الكتب فى البيت جمع كتاب بمعنى مكتوب أى مفروض ، فيكون المعنى له مفروضات من الفرائض ؛ أى مما فرضه على نفسه من الأوراد ونحوها ؛ ولاشك أن حمل الكتب على هذا بعيد ؛ على أنه لو صح فإنه يبقى أن هذا النظام من التصوف لم يكن معروفا فى عصر معاوية ، بل لم يكن معروفا فيه اسم التصوف وما اشتق منه .

ويمكن أن يحتج بهذا البيت على وضع تلك القصة ؛ ومثله بقية أشعارها الركيكة ؛ لأنها ليست فى درجة شعر هذا العصر على إطلاقه ولا فى درجة الشعر العذرى الذى ينسب فيه إلى جميل بثينة وكثير عزة ومجنون ليلى ونحوهم .

على أن الرواية التى صححناها فى نسبة الصغيرة السابقة إلى ابن أم الحكم لا إلى مروان بن الحكم ؛ قد نسبت إلى معاوية بن أبى سفيان بمحاولته الوقوع فيها ، وهو أكبر أيضا من أن يقع فى ذلك

فتكون هذه القصة ضعيفة فى سبكها وشعرها ، ويكون فى هـــذا مافيه من الدلالة على وضعها ؛ والظاهر أنها موضوعة فى عصر متأخر من العصور التى اشتهر فيها وضع أمثال تلك الروايات ، وإن كانت لا تنزل إلى درجة العامية التى نزلت إليه تلك الروايات فى هـذه العصور ، والله أعلم .

فهرس الكتاب

للمؤلف

١ — مختارات الشعر الجاهلى

بتحقيق وشرح فضيلته

الثمن ٣٠ قرشاً

٢ — تاريخ الإصلاح فى الأزهر

وصفحات من الجهاد فى الإصلاح

الثمن ٦٠ قرشاً

٣ — بسط سامع المسامر

الرواية الصحيحة لديوان مجنون ليلى لابن طولون

بتحقيق وشرح فضيلته

---

٤ — الوسيط :

فى تاريخ الفلسفة الإسلامية

(تم الكتاب ـــ بحمد الله وتوفيقه)